وزارة الثقافة

على ضفاف الأردن

تأليف: هدية عبد الهادي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

على ضِفاف الأردن

تأليف: هديّة عبد الهادي

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٤٣
عن مطبعة دار الأيتام السُّوريّة في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: هدية عبد الهادي
اسم الكتاب: على ضِفاف الأردن
الطبعة الأولى: ١٩٤٣ عن مطبعة دار الأيتام السُّوريّة في القدس

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: نقولا صايغ

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

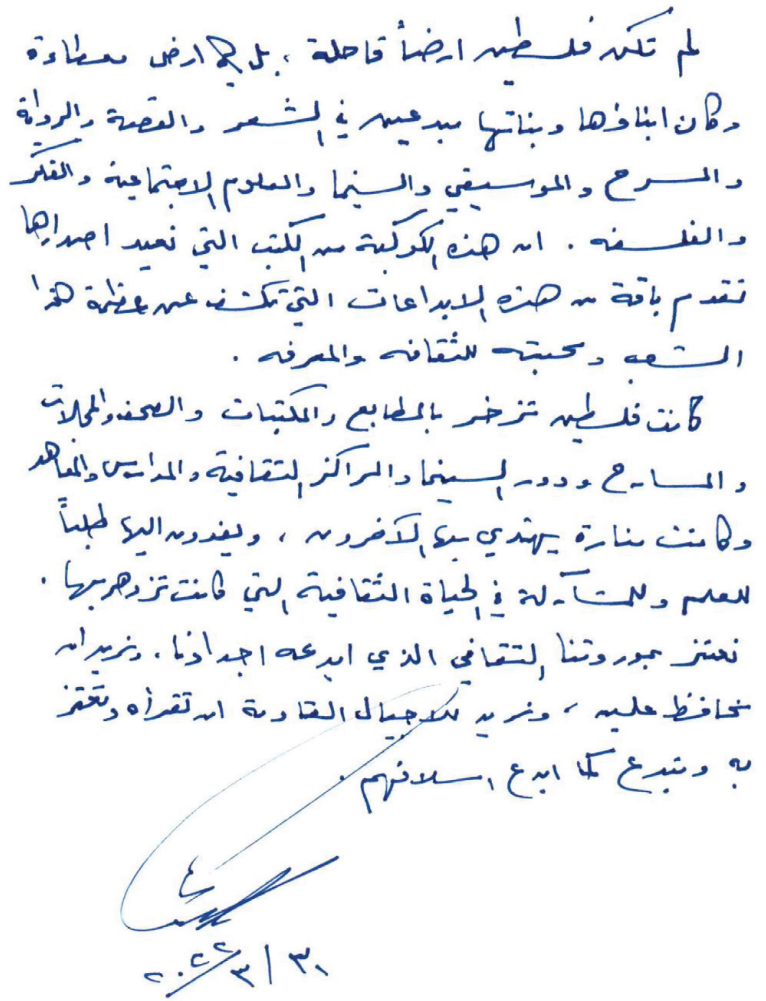
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض عطاء
وكان ابناؤها وبناتها سبّاقين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لهذا الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٤/٣/٣٠

على ضِفاف الأردن

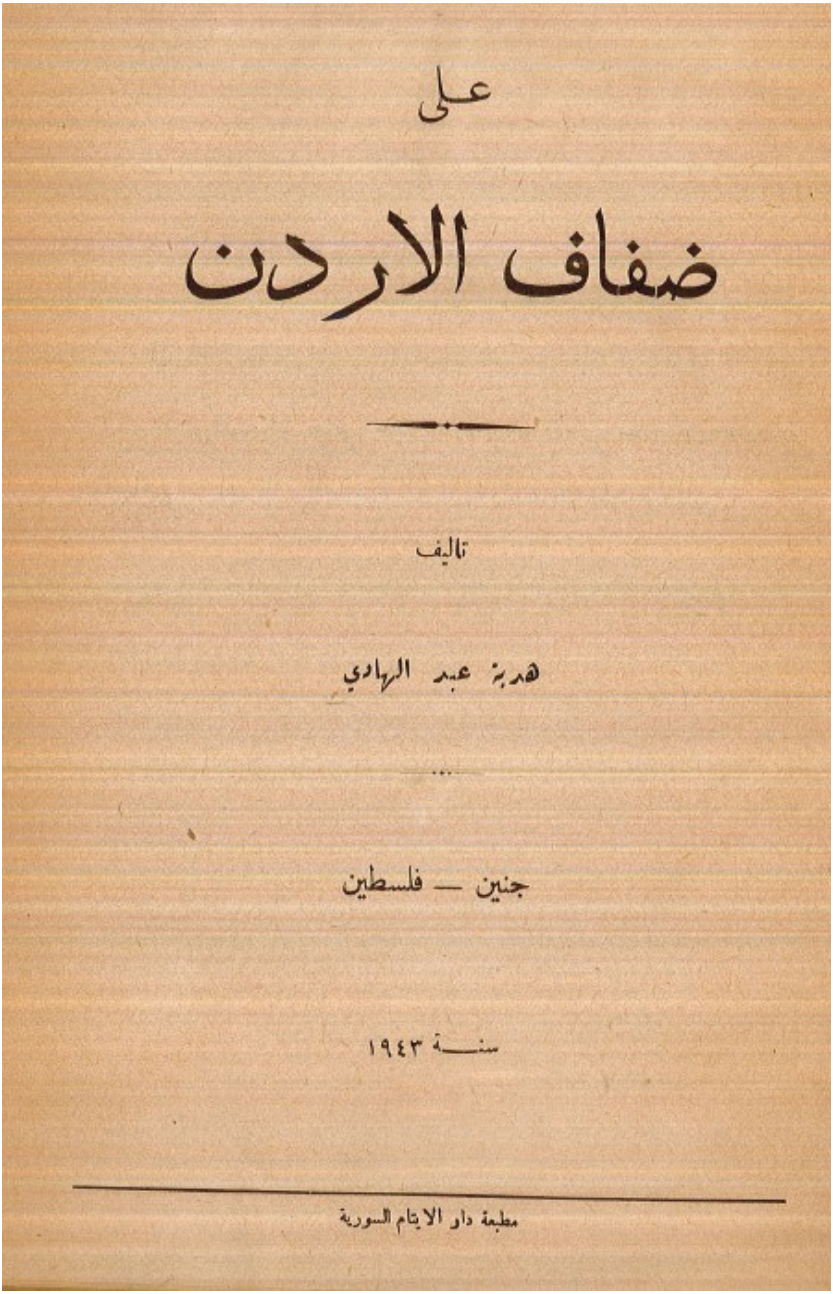

الغلاف الأصلي للكتاب

الإهداء

إلى الشّـقيقة الصّغـيرة، المرهفـة الشّـعور، الفيّاضـة الحسـن، التـي كثـيرًا مـا وقفـت إلى جانبـي حيـث أكتـب، تسـألني تطـوّرات القصّـة باهتـمام ... إلى تلـك الشّـقيقة الصّغـيرة «هيفـاء» أقـدّم كتـابي

المؤلِّفة

في صباح يومٍ من أيّام الصّيف المشرقة، وقبل أن تتعالى الشّمس في الأفق، كان أفراد قبيلة النّسر، الضّاربة على سفح ربوةٍ من ربوات بلاد الإمارة العربيّة في شرقي الأردن، في الجنوب من نهر اليرموك الخالد على ضفاف نهر الأردن، حيث السهول الخصبة، والمراعي المترعرعة، يتسابقون مطرقين، وقد بدت على وجوههم أمارات القلق والجزع، ووجهتهم صيوان الأمير فواز، رئيس القبيلة وأميرها المفدى العزيز؛ بينما رقد ذلك الأمير على فراشه الوثير، وقد وهن جسمه و غارت عيناه، وإلى جانبه أخوه الأمير جعفر، جالسًا الأربعاء، ومطرقًا إلى الأرض، بقلقٍ واضطرابٍ!! فقد كان لا يطيق أن يرى أخاه الوحيد، وساعده الأيمن، يتمرغ على فراش السّقم والألم.

كان لا يستطيع أن يتصور سوء حالة أخيه، إلّا واضطرب وذهبت نفسه هبةً للأفكار والهواجس. ولما علت ضوضاء الرجال الذين توافدوا على الصيوان للاطمئنان على صحة الأمير المريض، تحامل الأمير جعفر، على نفسه والتفت إلى أفراد القبيلة يقول.

- أهلًا بالإخوان، ومرحبًا بالمخلصين ... تفضلوا اجلسوا على الرّحب والسّعة.

وجلس أفراد القبيلة الأربعاء كما كان يجلس الأمير، وأخذوا يسألون عن صحة أميرهم المريض، فأجاب الأمير جعفرٌ، بصوتٍ يائسٍ:

- إنّ صحة الأمير فوازٍ، لم تتحسن حتى الآن! ولكنّنا أرسلنا بعض رجالنا إلى مدينة عمّان نستدعي أمهر أطبائها، وترونا بانتظار الأطباء، نعلل نفسنا بالأمل.

وتفرق الرّجال في أنحاء الحيّ بعد هذا البلاغ الأليم! إذن لم تتحسن صحة الأمير حتّى الآن، ترى، متى يحضر الأطباء من عمّان؟ وهل يستطيعون إنقاذه؟ ليتهم يستطيعون.

وتجمّعوا تحت واحة النخيل في مدخل الوادي، حيث الطريق إلى عمّان، ينتظرون قدوم الأطباء، ويتبادلون الاستنتاجات والتنبؤات عن مصيرهم، إذا قدر وحدث للأمير مكروهٌ، فهو الأمير العادل النزيه، وهو الفارس الجبار العنيد، والوجيه المحترم، الذي رفع شأن هذه القبيلة الصغيرة بين العربان والقبائل.

نعم إنّ أخاه أميرٌ قوي القلب، جريء الرأي، وفارسٌ، ووجيهٌ، فهل يستطيع أن يدير شؤون القبيلة، ويشرف على رعايتها، وينهج نهج أخيه الكبير؟

وسمع المجتمعون وقع حوافر الجياد تخبّ مسرعةً في بطن الوادي وتتّجه إلى الحيّ؛ وقاموا ليروا! فإذا هي جياد الأمير «جعفر» وقد

علاها بعض رجاله الذين أرسلهم للقاء الأطبّاء، فالأرض ليست معبّدةً في هذه الجهات، فلا يستطيع الأطبّاء أن يجتازوها بسيّاراتهم.

واجتمع أفراد القبيلة، وتألّبوا على صيوان الأمير، كانوا حوالي ثلاثين رجلًا، متقلّدين السّيوف، ومتأجّجي الحمية، وقد جلس الواحد إزاء الآخر، لا ينبس ببنت شفةٍ، وكلّهم ينتظر كلمة الأمير الأخيرة، فقد ساءت حالته، واشتدّت علّته، وشعر بدنوّ أجله لا محالة، فدعا أفراد قبيلته؛ ليراهم للمرّة الأخيرة، ويملي عليهم وصيّته، وجلس على حافّة فراش المريض أخوه الأمير «جعفر» وأسنده إلى صدره حيث جعله مقابلًا رجال قبيلته، وتكلّم المريض بصوتٍ خافت، متهدّجٍ، ضعيفٍ، فقال:

«حيّاكم الله يا حماة الدّيار، وجزاكم خيرًا، اسمعوا أوصيكم. إنّني ذاهبٌ من الدّار الفانية إلى الدّار الباقية، ونفسي مطمئنّةٌ، وقلبي راضٍ عنكم، وها أنا أخلع عن عاتقي مسؤوليّة الإمارة التي رعيتها بسيفي ومالي وقوّتي، وألقي بها على عاتق أخي الأمير جعفر، وهاك سيفي، وختمي، وخيولي، أوصي بها إليه، أوصيكم أن تقسموا له يمين الطّاعة والولاء، وأسأله ألّا يهضم لكم حقًّا، ولا يهمل لكم أمرًا، أوصيكم بالتّعاون والتّضامن، والصّلاح والسّماح؛ ليبقى شأنكم محترمًا بين العرب والقبائل»

وتمهّل الأمير قليلًا كمن يجدّد قواه، ثمّ تابع: «أي أخي جعفر! أعطيك ابنتي الأميرة علياء، إلى ولدك الأمير ضرغام، وأوصيكم بها خيرًا».

وانقطع صوت الأمير وقد بلغ به التّأثّر مبلغًا عظيمًا! فاغرورقت عيناه بالدّموع، وأسند رأسه إلى صدر أخيه، ثمّ أغمض عينيه، واستسلم لملاك الموت.

كانت الأميرة سعدى أرملة الأمير فوّاز غريبةً عن القبيلة، فهي شقيقة الأمير بشّار، رئيس قبيلة المناذرة الضّاربة على ضفاف نهر الأردن في الأراضي الفلسطينيّة، ولهذه القبيلة شأنٌ معروفٌ بين العشائر والقبائل، فأميرها سخيٌّ كريمٌ وبطلٌ صنديد لا يشقّ له غبار، وماشيتهم الكثيرة سمينةٌ لبونةٌ، وأراضيهم الممتدّة إلى مساحاتٍ كبيرة من الغور خصبةٌ غليلةٌ، وخيولهم أصيلةٌ مطهمةٌ، ومقامهم رفيعٌ بين جميع القبائل والعشائر.

وعندما كانت الأمير سعدى في ميعة الصّبا، في هذه القبيلة، لم يكن يلهيها شيءٌ عن إطلاق الحريّة لنفسها، والتّمتّع بنعمتها وصفائها، إلى أبعد ما تتمنّاه الأميرات، فالخدم في الحيّ كثيرون، وأمّها وشقيقتها تشرفان على المضافة، وتحيّيان الضّيوف، فلا ضرورة لبقائها داخل الخيام، فعلى شاطئ نهر الأردن كلّ ما يبهج النّفس ويجلو الفؤاد، فكانت تأخذ بعض خدمها إلى «بيّارة الموز» حيث تخلع عنها عباءتها المقصّبة، ويجلسن بناحيةٍ منها. تشرف على قطعان الماشية وهي ترعى، وقد تجمّع الرعيان، يستظلّون تحت شجيرة موزٍ قريبةٍ، ويرسلون على النّاي أغانيهم البدويّة الحنون، وسرعان ما يهرع هؤلاء الرّعيان عندما يرون الأميرة؛ ليقدّموا لها تحيّاتهم الحرّى، ويطربونها بأغانيهم الشّجيّة، ويغنّون لها على النّاي أغنيتها المنتقاة

يـاأمّ العبايـا حلوة عباتك

يا سـمرة ويا زينة صفاتك

زينة صفاتك

فتبتهـج الأمـيرة ويسـتمرّ الرّعيـان، ولا ينفـضّ مجلسـهم هـذا إلّا بعـد أن تتركهـم الشّـمس وتتـوارى عـن العيـون.

وكثـيرًا مـا كانـت الأمـير سـعدى تـترك الحـيّ مسـتصحبةً معهـا بعـض خدمهـا اللّـواتي يجـدن ركـوب الخيـل، فتعتـلي كلّ واحـدةٍ منهـنّ جـوادًا ويوغلـن في أراضي «الغـور» عـلى ضفـاف نهـر الأردن، يصغـين إلى خريـر الميـاه المتدهـورة في ذلـك النّهـر السّريـع، وأهازيـج الحـداة وهـم يسـوقون الإبـل رائحـين غاديـن مـن بـلاد الإمـارة العربيّـة في شرق الأردن إلى الأراضي الفلسـطينيّة، أو مـن الأراضي الفلسـطينيّة إلى بـلاد الإمـارة هنـاك، ولا يرجعـون إلى الحـيّ إلّا بعـد أن يـشرف القمـر عـلى المغيـب.

وكانـت هـذه الأمـيرة مـن مصغرهـا حديـث القبائـل والعشـائر، فهـي العريقـة النّسـب والحسـب! تتفاخـر بكـرم محتدهـا ونبـل أرومتهـا بـين الأمـيرات، وكيـف لا يحـقّ لأمـيرة المنـاذرة أن تفاخـر؟! وهـي الحسـناء المليحـة الممشـوقة القـوام، الدّعجـاء العـين، الصّبوحـة الوجـه، تترامـى غدائـر شـعرها النّاعـم الأسـود عـلى كتفيهـا، فتزيدهـا روعـةً وسـحرًا، وهـي الفصيحـة البليغـة، تقـول الشّـعر وتعـرف أنسـاب العـرب وأخبـار القبائـل، وهـي فـوق ذلـك بشوشـةٌ، رحـوبٌ، ليّنـة العريكـة، صائبـة الـرّأي.

ولمّا تقدّم لطلبها الأمير فوّاز أمير قبيلة النّسر، عزّ عليها أن تفارق أهلها وعشيرتها وبلادها إلى قبيلةٍ تجهلها، وبلادٍ لا تعرفها، ولكن، بعد أن حلّت الأميرة في قبيلتها الجديدة، اطمأنّت إليها، وسحرتها مناظر الطّبيعة على ضفّة الأردن الثّانية، فأحبّت القبيلة، وأحبّتها القبيلة كذلك.

ووضعت بعد عامٍ الأميرة علياء، فاشتدّ فرح القبيلة، وأخلصوا لها الولاء، ولمّا كبرت الطّفلة وترعرعت، وبلغت العاشرة تعلّق بها والداها وعمّها وعموم أفراد الحيّ تعلّقًا عظيمًا، فقد كانت حائزةً على أكبر قسطٍ من الجمال البدويّ الخلّاب، فعيناها الكحيلتان أشبه ما تكون بعيون المها، ووجهها المشرق الوضّاء يفيض جلالًا وجمالًا، حتّى كأنّها البدر في لجّة اللّيل، أو الأقحوانة في صدر الوادي.

وها هي الأميرة سعدى تأخذ في أحضانها ابنتها الأميرة علياء، تغمرها بدموعها بعد أن توفّي أبوها الأمير.

رجع الأمير جعفر إلى صيوانه بعد أن انتهى مأتم أخيه الأمير، وأحضر وجوه الحيّ ورجالاته؛ ليسمعهم كلمته إلى أرملة أخيه، ثمّ أحضرها إلى المجلس حيث أفسح لها مكانًا في صدر الصّيوان، وانبرى يقول بصوته الجهوريّ:

«أحمد الله وأثني عليه، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلّم. أمّا بعد، أشهدكم يا رجال الحيّ، وأشهد الله ورسوله ألّا أغيّر على أرملة أخي عادةً، ولا أهمل لها إرادةً، ما

دام لي سيفٌ أتقلّده، ومجلسٌ أتصدّره! أشهدكم يا رجال الحيّ وأشهد الله ورسوله أنّني أفوّض هذه الأميرة التي شاركتنا في سرّائنا وضرائنا، في شؤوننا وشؤونكم، إن أمرتنا أطعنا، وإن دعتنا هرعنا! وها رجالنا وأموالنا وخدمنا وماشيتنا وخيولنا رهن إشارةٍ منها.

وها أنا أعلن لكم يا رجال القبيلة أنّني أخطب سليلة المجد والشّرف، وربيبة النّعمة والتّرف، الأميرة علياء ابنة أخي الأمير فوّاز، إلى ولدنا الأمير ضرغام، سليل الإمارة، وفصيح العبارة، والله وليّ أمري وأمركم، وهو وليّ الصّابرين.

وهنا دوّى صوت رجال القبيلة، يقرؤون السّورة المباركة «فاتحة الكتاب» في حين كانت الأميرة سعدى تلتقط دموعها بطرف منديلها الحريريّ الكبير، وانفضّ المجلس وهم يثنون على شهامة هذا الأمير وتدبيره الحكيم.

لم يكن للأمير جعفر غير الضّرغام، وقد توفّي له ثلاثة أولادٍ في سنّ الطّفولة المبكّرة، وكم تمنّى أن يرزق أولادًا يعيشون بعده؛ ليركن لهم شؤون الإمارة، ولكنّ آماله ذهبت أدراج الرّياح، فسلّم الأمر لله، وحصر أمانيه في ولده الوحيد، وكان الضّرغام عند حسن ظنّ أبيه، سريع الخاطر أبيّ النّفس شديد الذّكاء، ركب الجواد في السّابعة من عمره، وتقلّد السّيف في العاشرة، وها هو في الثّانية عشرة، وقد أجاد قراءة القرآن.

وثـمّ رأى والـده الأمـير أن يتـمّ دراسـته في مدرسـةٍ عصريّـةٍ، فقـد كان شـديد الولـع بالدّراسـة والمطالعـة متعصّبًـا ضـدّ الأميّـة والجهـل، وبسـبب وفـاة عمّـة الأمـير فـوّاز، فـلا مندوحـة مـن إعـلان خطوبتـه عـلى كريمـة عمّـه الأمـيرة علياء، قبـل التحاقـه بالمدرسـة.

وكانـت هـذه الخطوبـة حافـزًا قويًّـا لشـحذ همّـة الأمـير الصّغـير وتجديـد نشـاطه وتقويـة عزيمتـه، فهـو ينتظـر اليـوم الـذي يصبـح فيـه رجـلًا مديـد القامـة، عريـض المنكبـين، جهـوريّ الصّـوت، لـيري علياء ضروبًـا مـن الفروسـيّة والرّجولـة، يريـد أن يصبـح أميـرًا نافـذ السّـلطة، مطـاع الأمـر؛ لـيري علياء مقدرتـه عـلى تدبـير الإمـارة وإدارة القبيلـة، يريـد أن يصبـح عالمًـا متعلّـمًا ليحـدّث علياء عـن كلّ فـنٍّ مـن فنـون الحيـاة، عـن حيـاة الأمـراء والأمـيرات، والاختراعـات والمبتكـرات والدّسـائس والمؤامـرات، وكلّ مـا يعرفـه عـن هـذا العـالم مـن كبـيرةٍ وصغـيرةٍ.

وفي اليـوم المعـيّن لافتتـاح المـدارس، اجتمـع رجـال القبيلـة في صيـوان الأمـير، يودّعـون أميرهـم المعبـود.

ووصلـت بعـد شـهرٍ الرّسـالة الأولى مـن الأمـير التّلميـذ، ففضّهـا والـده الأمـير جعفـر، وقرأهـا عـلى مـن كان حـاضرًا مـن رجـال القبيلـة.

«سيّدي الوالد المعظّم

أكتـب لسـموّكم رسـالتي هـذه؛ لتنـوب عنّـي بتقبيـل يديكـم الطّاهـرة، ثـمّ لأذكـر لكـم شـيئًا عـن حيـاتي الجديـدة، فالحيـاة عندنـا مختلفـةٌ عـن

حياتكـم، عندكـم الحريّـة المطلقـة والمناظـر الخلّابـة، والعشـيرة العزيـزة، وعندنـا الدّراسـة الشّـاقّة، والنّظـام الدّقيـق، والبعـد عـن الأهـل والإخـوان، فكـم تاقـت نفـسي إلى لقياكـم جميعًـا؛ لأرجـع بالذّكـرى إلى المـاضي الهنـي ولـو إلى لحظـات، إنّنـي أذكركـم دائمًـا يـا سـيّدي الوالـد، أذكـر كلّ فـردٍ مـن أفـراد القبيلـة، أذكـر مجالسـكم الطليّـة، وأحاديثكـم الشّـهيّة، فهـل تذكروننـي كذلـك؟

أرسـلت لكـم صـورتي في ملابـس الكشّـاف؛ لعلّهـا تروقكـم. وسـترونني نهـار الجمعـة القـادم مـع كشّـافي المدرسـة، في رحلـةٍ علميّـةٍ إلى نهـر اليرمـوك، حيـث نمـرّ عـلى دياركـم العامـرة لزيـارة نهـر الأردن العظيـم، ثـمّ نغادركـم في المسـاء راجعـين إلى المدرسـة.

أرجـو أن توافـوني دائمًـا بأخباركـم الغاليـة؛ كـما أرجـو أن تبلغـوا جزيـل سـلامي لجميـع أفـراد القبيلـة، وكريمـة عمّـي الأميرة عليـا، واسـلموا لولدكـم البـارّ.

الأمير «ضرغام الجعفري»

ولمّـا رأى أفـراد القبيلـة صـورة الأمـير التّلميـذ في لبـاس الكشّـاف الرّائـع، أخـذوا يتخاطفـون الصّـورة؛ لرؤيـة محيّـا أميرهـم العزيـز، بينـما أخـذوا يسـألون للـه أن يحرسـه ويرعـاه.

وفي صباح نهار الجمعة الباكر، كانت قبيلة النّسر قائمةً على قدمٍ وساق، فاليوم موعد رحلة الكشّاف العلميّة، التي سيلقون بها أميرهم التّلميذ.

وبكر فرسان القبيلة في الذّهاب إلى نهر اليرموك، حيث نصبوا الخيام للّقاء وأفردت خيمةٌ كبيرةٌ للأميرة سعدى وكريمتها الأميرة علياء لمشاهدة المهرجان العظيم، وأخذ خدم الحيّ في إعداد الذّبائح للوليمة الكبيرة.

ووقفت الأميرتان على باب الخيمة تنتظران، وما هي إلّا بعض ساعةٍ حتّى بدت أعلام الكشّاف ترفّ من بعيدٍ، وأسرع الفرسان إلى خيولهم فامتطوها وأطلقوا لها العنان، والتقى الفريقان وضجّا في الهتاف، أخذ شباب الكشّافة يهتفون لقبيلة النّسر الكريمة وأميرها جعفر النّبيل، بينما أخذ فرسان القبيلة يحيّونهم بدويّ البارود يطلقونه في الهواء، وتقدّم إلى الطّليعة الأمير ضرغام وقد بدى بملابسه تلك شابًّا صغيرًا ساحر الطّلعة، وضّاح الجبين، وهرع إليه الفرسان يحيّونه، ويهتفون بحياته. بينما أخذ الأمير يردّ على تحيّاتهم بابتسامة امتنانٍ وشكرٍ.

وسار الكشّاف يتقدّمهم الأمير ضرغام، يحمل العلم العربيّ الجميل، ومن حولهم الفرسان يهزجون أهازيج التّرحيب والحماس إلى أن وصلوا إلى اليرموك.

تراجع الفرسان إلى الوراء يفسحون الطّريق لشباب الكشّاف الذين وقفوا إزاء النّهر الخالد بخشوعٍ وإجلالٍ، يحيّونه بالنّشيد المشهور:

على اليرموك قف وأقر السّلاما

وكلّمه إذا فهم الكلاما!

وقل يانهر! هل هاجتك ذكرى؟

شجت قلبي وحرّكت الغراما

وعندما انتهى الكشّاف من تحيّة النّهر التّاريخيّ، كان التّعب والجهد قد أخذ منهم كلّ مأخذٍ، فتصبّب العرق على جباههم، واختفت وجوههم من جهد الحرّ والسّير الطّويل.

وكان الفرسان قد أعدّوا كافّة وسائل الرّاحة للضّيوف الذين انسحبوا إلى الخيام يتّقون حرارة الشّمس المحرقة، ويتناولون القهوة ليستعيدوا ما فقدت أجسامهم من النّشاط.

ورأى الأمير ضرغامٌ خيمةً بعيدةً قليلًا عن الخيام، وسأل بعض الخدم:

- لمن تكون هذه الخيمة المنفردة البعيدة قليلًا عن هذه الخيام؟

- إنّها خيمة الأميرة سعدى وابنتها الأميرة علياء، وقد حضرتا معنا هنا؛ للتّفرّج على مهرجان اللّقاء.

وأسرع الأمير الخطى نحو تلك الخيمة، ووقف ببابها يلقي التّحيّة على الأميرتين:

- حيا الله الأميرتين.

- وحيّا الله الأمير! ومرحبًا بمقدمك!

وأسرعت إليه الأميرة سعدى تضمّه إلى صدرها بحنانٍ عظيمٍ، في حين وقفت الأميرة علياء جانبًا، وقد حارت في مقلتيها دموع الفرح بمقدم الأمير.

كانت الأميرة سعدى تعطف على هذا الأمير عطفها على ولدٍ عزيزٍ، فقد سهرت على تربيته مذ توفّيت أمّه وعمره خمس سنين. ولمّا تزوّج أبوه هذه المرأة الحورانيّة زاد تعلّق الطّفل بامرأة عمّه الحنون، فتربّى مع ابنتها الأميرة علياء في خيمةٍ واحدة.

ووقف ينظر إلى ابنة عمّه، كما وقفت تنظر إليه، فقد رأت فيه كشّافًا صغيرًا يفيض نشاطًا وحيويّةً! فما أعظمه عندما يصبح أميرًا.

ورآها قد كبرت بسرعةٍ، فامتشق قوامها وتورّد وجهها! فما أروعها عندما تصبح أميرةً.

هذا ما كان يجول في خاطر الأميرين، ودوّت صفّارة المعلّم تدعو الكشّاف للرّحيل، فثبت الأمير، وقد بدت عليه علامات التّمرّد! ولكنّه عاد فهزّ رأسه ببطءٍ، ثمّ التفت إلى الأميرتين، وتركهما وهو يقول:

- أستودعكما الله أيّتها الأميرتان.

- في حراسة الله، وعلى الطّائر الميمون، يا قبلة آمالنا العزيز.

وسار الكشّاف، والأميرتان تتبعانه بأنظارهما، حتّى تواروا عن العيان، ولمّا وصلوا إلى مضارب قبيلة النّسر؛ لزيارة نهر الأردن، كان في استقبالهم الأمير جعفر، الذي احتفى بهم حفاوةً عظيمةً، وقد طارت نفسه فرحًا حين رأى ولده الضّرغام سعيدًا في حياته الجديدة.

وسار الرّهط إلى نهر الأردن العظيم، حيث أقاموا ساعةً هناك، وقفلوا راجعين إلى المدرسة.

لم يكن للأمير جعفر أن يهنأ في حياته بعد موت أخيه الأمير فوّاز، فقد تأخّرت صحّته، وضاقت نفسه، واعترته الحمّى تنتابه بين الفينة والفينة، حتّى أنهكت قواه، وها هو اليوم يترك مجلسه من الصّيوان ليذهب إلى الفراش، خائر القوى، فقد عاودته الحمّى بشكلٍ مخيفٍ! ولازمته أسبوعًا كاملًا، وكان يعاني خلاله أسوأ حالات المرض، ولم تتركه إلّا جثة هامدة!

يا للهول! يا للوبال! لقد مات أمير القبيلة الثّاني بعد موت أميرها الأوّل بسنتين! يا لشؤم هذه القبيلة، ويا لدمارها وخرابها على مدى الأيّام!

ارتجّ الحيّ! وصعقت القبيلة! ولعبت الدّماء في رؤوسهم، وشيّعوا رئيسهم، ورجعوا يدعون بالويل والثّبور.

لقـد انهـارت هـذه القبيلـة، وتفكّكـت عراهـا، بعـد أن كانـت حصينـةً كالعريـن، انقرضـت هـذه الإمـارة، ولم يبـق منهـا إلّا أميرٌ في الرّابعـة عـشرة ليـس لـه سـندٌ أو معـينٌ، يـا لقسـوة الأقـدار وظلـم الأيّـام!

يـا للقبيلـة العامـرة كيـف أصبحـت بعـد الأمـير الأغـر! ويـا لأمـيرات الحـيّ وفتيانـه بعـد نجـمٍ أفـل!

وطـار الخـبر في كلّ مـكانٍ، حتّـى غـدا حديـث المجالـس والدّواويـن. قبيلـة النّـسر العامـرة الهانئـة مـات أمراؤهـا جميعًـا، ولم يبـق مـن سـلالتهم إلّا أميرٌ تلميـذٌ، صغـير السـنّ، أخـضر العـود، وسـتمضي الشّـهور والسّـنون قبـل أن يصبـح رجـلًا قـادرًا عـلى لمّ شـعث القبيلـة، وأميرة في الثّانيـة عـشرة تنـوح في أرجـاء الحـيّ الخـراب. إنّـا للـه وإنّـا إليـه راجعـون.

ولمّـا وصـل الخـبر إلى الأمـير بشّـار، أمـير قبيلـة المنـاذرة، أرسـل بعـض رجالـه إلى شـقيقته الأميرة سـعدى، ومعـه رسـالته: « مـن الأمـير بشّـار أمـير قبيلـة المنـاذرة، إلى الأميرة سـعدى، وكريمتهـا الأميرة عليـاء

بعـد السّـلام ورحمـة اللـه وبركاتـه، أعـرض أنّـه وصلنـا الخـبر المشـؤوم، ويعلـم اللـه كـم تأثّرنـا لهـذه الفاجعـة، ولمّـا كنـا لا نقـدر عـلى مقاومـة القضـاء والقـدر، فليـس لنـا إلّا الصّـبر.

وأمّـا الآن، فـإنّي أرى أنّـه ليـس مـن اللّائـق بقاؤكـما في الحـيّ مـع أفـراد القبيلـة، فليـس مـن العـادة بقـاء الأميرات بـدون أمـيرٍ يعنـى بشـؤونهنّ؛ لذلـك أرجـو أن تقبلـن النّـزول في مضافتـي إلى أن يرجـع الأمـير ضرغـام إلى

قبيلتـه ويسـتلم زمـام إمارتـه، وتعـود الميـاه إلى مجاريهـا، إن شـاء اللـه.

وقـد أوحيـت رجـالي أن يقومـوا برعايتكـما وخدمتكـما إلى أن تصـلا، فعـلى الرّحـب والسّـعة، وهـا نحـن بالانتظـار.

«الأمير بشّار»

لمّـا قـرأت الأمـيرة عـدى رسـالة شـقيقها الأمـير بشّـار، لم يسـعها إلّا النّـزول عـلى إرادتـه، فمـن العبـث بقاؤهـما في الحـيّ بعـد اليـوم. ودعـت إليهـا الأمـيرة عليـاء وقالـت:

- هـا هـي رسـالةٌ وصلتنـي مـن خالـك الأمـير بشّـار. إنّـه يدعونـا لضيافتـه إلى أن يرجـع الأمـير ضرغـام إلى القبيلـة، فـما قولـك يـا بنيـة؟

- وكيـف أهجـر الحـيّ الـذي نشـأت في جنباتـه، وترعرعـت في أرجائـه؟! هـلّا بقينـا هنـا؟ لعـلّ اللـه يحـدث بعـد ذلـك فرجـا.

- مـن العبـث بقاؤنـا هنـا يـا عليـاء! ولكنّنـا سـنرجع إلى الحـيّ عندمـا نعـرف أنّ الأمـير ضرغـام قـد أتـمّ دراسـته ورجـع إلى قبيلتـه.

- وهل نكون في إمارة خالي إلّا نزيلتين؟! وأجهشـتا الأميرتان في البكاء.

وسـمعت نسـوة الحـيّ نـواح الأميرتـين، فأقبلـن، ولمّـا رأينهـما تسـتعدّان للرّحيـل، جـنّ جنونهـنّ، وثـارت ثائرتهـنّ! وأخـذن يمزّقـن ثيابهـنّ وشـعورهنّ، ويعلـين الـصّراخ والعويـل، حتّـى اجتمـع أهـل الحـيّ قاطبـة، وأحاطـوا بالأميرتـين!

وصـاح وجيـهٌ مـن القبيلـة: إلى أيـن تذهبـان أيّتهـا الأميرتـان؟ وهـل لنـا عندكـم ذنـب «أمـراء النّـسر» حتّـى تتركونـا الواحـد يـلي الآخـر! وكأنّنـا نسـتحقّ منكـم هـذا العقـاب؟! اللـه أكـبر! بـين عشـيّةٍ وضحاهـا نطلبكـم فـما نجدكـم! نلتفـت فـلا نلقاكـم! كنّـا إمـارةً رفيعـةً، فأيـن عمادهـا يـا ربّـاه؟! وكنّـا قبيلـةً شـديدةً، فأيـن جموعنـا يـا ويـلاه؟! أنصبـح فلـول قبيلـةٍ يطمـح فينـا صغـار مشـائخ العـرب؟! أنغـدو غنيمـةً سـهلةً يضـع يـده علينـا مـن عنـده رمـحٌ وسـيفان؟! يـا للـذلّ ويـا للهـوان! أينـك منّـا يـا مـوت؟ إمّـا أن تأخذنـا جميعًـا السّـاعة وإمّـا أن تعيـد لنـا الأميرتـين! إمّـا أن تبطـش بأفـراد الحـيّ واحـدًا بعـد واحـدٍ، وإمّـا أن تحمـل نداءنـا إلى الراحلـين! نريـد إمارتنـا الحصينـة الجانـب! نريـد عزّنـا الغابـر الدّاثـر! ولكنّنـا لا نريـد هـذا ولا ذاك، إنّـا نريـد المـوت!

وعـلا صـوت وجيـهٍ آخـر يقـول: يـا أفـراد القبيلـة المحطّمـة! ويـا فلـول الإمـارة المنهـارة! لمـاذا تسـتعظمون رحيـل الأميرتـين؟ لقـد اعتـادت نفوسـنا الـوداع والرّحيـل. طالمـا رحـل الأمـراء فلـماذا تبقـى الأمـيرات؟! فليـس لنـا بعدكـم «أمـراء النّـسر» إلّا التّفـرّق والشّـتات! كنّـا نتقلّـد السّـيوف فخلعناهـا، وكنّـا نلعـب بالرّمـاح فكسرناهـا، وكنـا نعتـلي الخيـول، فاجمعـوا لنـا الماشـية نرعاهـا اليـوم. كنّـا وجـوه قبيلـة النّـسر، فأصبحنـا رعـاة قبيلـة البـوم! وكنـا ذوي نخـوةٍ وجـودٍ، فأمسـينا عبيـد ذلٍّ وشـؤمٍ! يـا للدّمـار يـا للبثـور!

وطفـرت العيـون بغزيـر الدّمـوع، وتوتّـرت الأعصـاب، وعـلا الضّجيـج، وقـد أصيـب القـوم بثـورةٍ مـن الجنـون.

ووقفت الأميرة سعدى تتكلّم بين هذه الجموع، شاحبةً مرتجفةً مجلّلةً بالسّواد، فاشرأبّت لها الأعناق! وعلت الزّفرات وضجّ النّاس بالعويل، وتماسكت الأميرة، وقالت: «يا وجوه القبيلة ويا كرام العرب، هل لنا أن نتمرّد على القضاء والقدر؟ قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا، أمّا بعد، فاعلموا أنّكم الأعزّاء في العرب، الحسيبون في القبائل، وأنّ ما أصابكم من بلاءٍ إن هو إلّا غمامة صيفٍ لا تلبث أن تنقشع، فها أميركم الضّرغام لا يلبث أن يصبح رجلًا عظيمًا، فيعيد إلى القبيلة بمعونتكم يومها الدّابر، وعزّها الغابر، وكلّ ما أرجوه منكم، يا حماة الدّيار، أن تكتموا عنه الخبر؛ لئلّا يتسرّب الوهن إلى نفسه، فتقتله الأوهام والأحزان، اصبروا على البلاء قليلًا، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا. أوصيكم بالأميرة علياء المنكوبة، فهي وديعة الأمير فوّاز عندكم. اسألوا عنا في قبيلة المناذرة، واذكرونا على بعد الدّيار، وافونا بأخباركم، محمولة على أجنحة الهواء، لا تغلقوا صيوان الإمارة، ولا تهينوا خيولهم.

أستودعكم الله يا كرام العرب، وأسأله أن يجمعنا بكم في هذه الدّيار في يومٍ قريبٍ»

ثمّ سقطت على إلى الأرض غائبةً عن الوجود، ولمّا عاد إليها صوابها، أخذت ابنتها الأميرة علياء في يدها وهما ترتجفان، وسارتا، يتبعهما أفراد الحيّ، يهيلون التّراب على رؤوسهم، ويلطمون الخدود والصّدور، إلى أن وصلنا إلى مربط الخيول، وكان بانتظارهما رجال المناذرة، فاعتلت كلٌّ منهما جوادًا، والتفتتا إلى أفراد القبيلة الذي كانوا بحالةٍ أشبه

بالجنـون، وأشـاحتا بوجهيهـما الشّـاحبين، بينـما رجـع أفـراد القبيلـة إلى مضاربهـم، وقـد تلفـت نفوسـهم عـلى فـراق الأميرتـين.

سـار رجـال المنـاذرة يحفّـون بالأميرتـين، ووجهتهـم إمـارة المنـاذرة في الأراضي الفلسـطينيّة، ومـا أبعـدوا قليـلًا في المسـير، حتّـى توقّفـت الأمـيرة عليـاء قليـلًا، ثـمّ قفـزت عـن ظهـر الجـواد إلى الأرض، ووقفـت مذهولـةً، وقـد فغـرت فاهـا، وفتحـت عينيهـا، وأجالـت النّظـر في أنحـاء الطّريـق، ثـمّ التفتـت إلى الرّجـال تقـول برعشـةٍ شـديدةٍ:

- إلى أيـن تذهبون بنا أيّها الرّجال؟!

ودهـش الرّجـال مـن لهجـة الأمـيرة وتصرّفهـا الثّائـر، فقـد كانـت تبـدو كمـن أفاقـت مـن غيبوبـةٍ، أو كمـن تخلّـص مـن سـحرٍ.

وقفزت الأميرة سـعدى عن ظهر جوادها، وأسرعت إلى ابنتها تقول:

- هـوّني عليـك يـا بنيّـة! إنّنـا ذاهبتـان إلى قبيلتنـا الثّانيـة يـا عليـاء، وسـتجدين نفسـك بـين أهلـك وعشـيرتك.

- وأيـن هـم أهـلي وعشـيرتي؟ أتراهـم يقومـون مـن مراقدهـم فألقاهـم في قبيلـة المنـاذرة يـا أمّـاه؟! الويـل لـك يـا علياء المنكوبـة.

وأدارت وجهها نحو الحيّ المهجور، وأجهشـت في البكاء والعويل.

وهرعت الأميرة سعدى إلى ابنتها تضمّها إلى صدرها، وتشاركها العويل والنّحيب. وترجّل رجال المناذرة وأطرقوا إلى الأرض وقد بدت عليهم أمارات الألم والحنان.

ورجعت الأميرة علياء تقول:

- لن أغادر قبيلة أبي وجدودي، ومن الذي يرغمني على ترك بلاد قومي وأهلي؟! اذهبوا عني واتركوني هنا أنوح على تلك الدّيار، دعوني أبكي أبي وعمّي، وأندب إمارتنا الضّائعة، ليتني أموت هنا، قريبة منهم، فأدفن معهم، قريبة من الدّيار.

وتخلّصت من يدي أمّها، وألقت نفسها على الأرض تتمرّغ كالثّور المذبوح. وجنّ جنون الأمّ، فأخذت تلطم وجهها ورأسها، ورمت نفسها بالقرب منها، وأخذتها بيديها تقول:

- ارحمي نفسك وأمّك يا علياء! أستلحفك بأبيك وعمّك أن تكفّي عن هذا النّحيب، إنّك تمزّقينني بآلامك يا بنيّة، ربّاه ما أتعسني بعد هذا المصاب، علياء، علياء، قومي بربّك، وارجعي لنفسك، هل في اليد حيلةٌ يا علياء؟

- عبثًا تحاولون إبعادي عن الدّيار. لا تحاولوا ذلك أبدًا. لتطمئنّ نفسك يا أبتاه، فلن أبتعد عن ضريحك، ولتقرّ عينك يا عمّاه، فلن أهجر الدّيار التي شهدت صولتك وسطوتك، سأبقى هنا في حيّ قومي وأهلي. أرعى معهم البقر والأغنام.

- علياء ...

- ولم تقسين يا أمّاه؟ اذهبي أنت إلى إمارة أهلك وقومك.

- ولمن أتركك يا علياء؟

- عند أهلي وقومي! لماذا تبيحين لنفسك الذّهاب إلى أهلك بينما تحرمين عليّ البقاء مع أهلي هنا؟ أتقسين على الشّقيّة علياء؟

- ويلاه، ليتني متّ قبل أن أرى علياء تبكي الأهل والدّيار.

وتقدّم رجال المناذرة يحاولون إمساك الأميرة علياء ومنعها من التّمرّغ على التّراب، ولمّا رأتهم يتألّبون حولها، ويمسكون بها، صرخت فيهم بصوت قاصفٍ مريعٍ:

- علام تتألّبون حولي أيّها الرّجال؟! ألا تعرفون من هي الأميرة علياء! إليكم عنّي! وإلّا دعوت أمراء قبيلة النّسر يوقفونكم بعيدًا عن الأميرات. ألا تريدون أن تتركوني؟ أبتاه، أبتاه، عمّاه، وأبتاه، تعالا بربّكما إليّ وخلّصاني من هذا الهوان، أبتاه، عماه، عمّاه، أبتاه.

وأطبق الرّجال على الأميرة يمنعونها أن تضرب رأسها وصدرها بيديها الثّائرتين المتشنّجتين، فأخذت تصرخ وتصرخ، إلى أن بحّ صوتها وتقطّعت أنفاسها، وصارت تناضل بيديها ورجليها تحاول الإفلات. ولكنّها لم تلبث أن هدأت، بعد أن غابت عن الرّشد، ولم تعد تتكلّم أو تتحرّك! ولمّا رأت الأميرة سعدى ما حلّ بابنتها الأميرة علياء، صارت تصرخ وتثب في الفضاء، وكأنّما مسّها الجنون، إلى أن وصلت إلى نهر الأردن، وكان على

بعد خطوات، وألقت نفسها به قبل أن يستطيع رجال المناذرة اللّحاق بها وإمساكها.

وجنّ جنون الرّجال! واقشعرّت أبدانهم من هول ما رأوا، وأخذوا يتصايحون وهم يتسابقون إلى النّهر، وألقوا بأنفسهم فيه، يحاولون اللّحاق بالأميرة المنتحرة، ولكنّهم لم يستطيعوا انتشالها إلّا بعد جهدٍ جهيدٍ، وألقوها على ضفّة الأردن يحاولون إنقاذها، ولكنّها كنت قد فارقت الحياة.

ورجعوا إلى الأميرة علياء التي لا تزال في غيبوبةٍ فلم تدر ما حدث، وأردفوا الأميرتين على خيولهم، وساروا إلى قبيلة المناذرة، عطلت قبيلة المناذرة على هذه الأميرة، ولم يأل أميرها جهدًا في التّخفيف عن هذه المنكوبة، وأفرد لها خيمةً كبيرةً في صدر الحيّ تشرف على أبهج مناظر القبيلة، وأوقف على خدمتها خادمًا يدعى سلامة، من أخلص غلمان الحيّ وأطوعهم، كما خصّص لها عجوزًا وقورًا تلازمها اللّيل والنّهار.

ولكنّها كانت لا تنفكّ عن البكاء والنّحيب، تقضي اللّيل ساهرةً ساهدةً وتقضي النّهار نادبةً نائحةً، وها قد مضى على نزولها في هذه القبيلة حوالي الشهرين، ولكنّها لم تترك خيمتها مرّة واحدة إلى الخلاء، لم تحاول أن تطلّ من باب الخيمة أو تلقي نظرةً على جموع الفتيان وهم يلعبون الدّبكة في أسفل الوادي، أو يتسابقون على الخيول.

كانت واجمةً مطرقةً أحيانًا، ولكنّها باكيةٌ منتحبةٌ على الغالب. ولمّا رأى نسوة الحيّ وجومها ونفورها، لم يعدن يتردّدن على خيمتها، وقلّما

تـرى عندهـا زائـرةً مـن نسـاء الحـيّ.

وكثـيرًا مـا جلسـت إليهـا العجـوز تسـلّيها وتقـصّ عليهـا الأخبـار والأقاصيـص، ولكنّهـا لم تنجـح في إبعادهـا عـن عزلتهـا ونفورهـا، حتّـى ولم تسـتطع أن تمنعهـا عـن البـكاء.

وبقيـت عـلى هـذه الحالـة سـنةً كاملـةً، لا تأنـس إلى أحـدٍ، ولا تتلهّـى عـن مصائبهـا أو تتناسـاها، حتّـى ولم تسـمع خـلال هـذه السّـنة الطّويلـة شـيئًا عـن قبيلـة الـنّر.

وجـاءت العجـوز يومًا، تهمس في أذن الأميرة علياء:

- يـا أمـيرة علياء. لقـد نزلـت في ذلـك الـوادي القريـب عرّافـةٌ تـضرب الرّمـل، ولا تخفاهـا خافيـةٌ، فهـل ننـزل إليهـا؟ نسـألها أحـوال قبيلتـك؟

وتشـبّثت الأميرة بذراع العجوز وهي تقول متضرّعةً:

- خذينـي إليهـا بربّـك، ولـك عنـدي جـزاءٌ كبـيرٌ إن أخبرتنـي هـذه العرّافـة شـيئًا عـن أحـوال قومـي ومـا وصلـوا إليـه.

وسـارت العجـوز تتقـدّم الأمـيرة علياء، التـي كانـت تترنّـح في مشـيتها، ولا تـكاد تقـوى عـلى المسـير. وتجمّـع عـلى الطّريـق صبيـة الحـيّ وفتياتـه يتفرّجـون عـلى الأمـيرة الشّـاحبة الرّائعـة، وقـد بـدت تحـت عباءتهـا الفضفاضـة السّـوداء كأنّهـا هالـة بـدرٍ، يعلوهـا الضّبـاب.

ونزلتـا المرتفـع الموصـل إلى الـوادي، وأطلّتـا عـلى خبـاء العرّافـة، ولمّـا رآهـما

الكلـب المـوكل بحراسـة الخبـاء أخـذ ينبـح نباحًـا متواصـلًا شـديدًا. وظهـر مـن الخبـاء عـلى إثـر نبـاح الكلـب عبـدٌ أسـود منكـر الهيئـة، مخيـف الصّـورة، فزجـر الكلـب وركلـه برجلـه، فكـفّ عـن النّبـاح، ثـمّ التفـت إلى الغريبتـين، وكانتـا تقفـان بعيـدًا، تنتظـران دعـوة هـذا العبـد في الدّخـول. وتقـدّم إليهـما وحـدّق فيهـما يقـول:

- إلى أين تقصدان؟

- جئنا نسـأل العرّافة مشـورةً، فهل تستأذن لنا في الدّخول؟

وتركهـما العبـد وانصرف، ثمّ رجع بعد لحظةٍ يقول:

- سـيدتي العرّافة تأذن لكما في الدّخول.

وتبعتـاه إلى الخبـاء، وكانـت تنبعـث منـه رائحـةٌ قويّـةٌ غريبـةٌ تشـبه رائحـة البخـور، وتقدّمـت العجـوز إلى الدّاخـل، وتبعتهـا الأمـيرة، فـإذا سـيّدة في الأربعـين مـن العمـر، حـادّة النّظـرات، سـمراء اللّـون، تلبـس ثيابًـا بيضـاء نظيفـةً واسـعةً، وعـلى رأسـها غطـاءٌ أبيـض، وقـد تـدلّى في صدرهـا ثـلاث مسـابح مـن المرجـان الثّمـين، وعـلى جانبيهـا حيـث جلسـت ألـوفٌ مـن الصّرائـر واللّفائـف، مكدّسـة في إهـمال، حتّـى صـدر الخيمـة وأمامهـا مجمـرةٌ مـن النّـار.

ولمّا رأت القادمتين مقبلتين، نظرت إليهما طويلًا، وأومأت لهما بالدّخول، وجلستا على بساطٍ قريبٍ وصمتتا.

ومضت فترةٌ طويلةٌ، وكانت العرّافة لا تلتفت إليهما، وكأنّها في شاغلٍ.

ثمّ رفعت رأسها إلى الأميرة وحدّقت بها، ثمّ أغمضت عينيها، وصارت تتكلّم في شبه ذهولٍ، فقالت: أرى صرحًا عاليًا شامخًا، ولكنّه انهار. أرى إمارةً وأمراء، أكابر ووجهاء، ولكنّهم قصدوا الغربة والرّحيل، أرى مياهًا تتقاذف وتتلاطم، وتحتضن أميرةً عظيمةً فتنتزع منها الحياة، أرى كلّ شيءٍ حسنا في الماضي، سيئًا في الحاضر. الجوّ ملبدٌ بالسّحاب والغيوم. ستمرّ عليك صعوبةٌ تزلزل كيانك، ولكنّك ستجتازينها بسلامٍ، وبعد هذا وذاك، أرى شمسًا مشرقةً تسطع في سماء حياتك، فتبعث فيك الحياة من جديد».

وأخذت العرّافة تهزّ رأسها ببطءٍ، ثمّ سكتت، وكانت الأميرة ترتجف خلال سماع النّبوءة، وتصطكّ ركبتاها من الاضطراب!

وفتحت العرّافة عينيها ونظرت إلى الأميرة، فرأتها تكاد تغمى من شدّة الاضطراب! فتناولت من إحدى اللّفائف القريبة مسحوقًا أبيض ناعمًا، ورمت به في المجمرة، ولمّا احترق، فاحت رائحةٌ قويّةٌ عطريّةٌ انتعشت الأميرة، فاستردّت قواها، ورجعت إلى نفسها، وتنفّست الصّعداء.

ومـدّت الأمـيرة يدهـا إلى جيبهـا، وتناولـت جنيهًـا ذهبًـا رمـت بـه إلى العرّافـة، فتناولتـه العرّافـة ورمـت بـه في كيـسٍ جلـديٍّ صغـيرٍ، وعـادت الأمـيرة تسـألها:

- أيمكن أن أسـتوضح من السـيّدة العرّافة بعض الشّيء؟

لم تقـل العرّافـة شـيئًا، وإنّمـا هـزّت رأسـها عـدّة مـرّات متواليـةٍ، وكأنّهـا تقـول مسـتحيل.

وقامـت الأمـيرة والعجـوز، يتقدّمهـما ذلـك العبـد الـذي أدخلهـما وغادرتـا الخبـاء، ورجعتـا إلى الحـيّ تمشـيان الهوينـا، وصـوت العرّافـة لا يـزال يـرنّ في أذنيهـما.

ولمّـا دخلتـا الخيمـة، جلسـت الأمـيرة تفكّـر: النّبـوءة صحيحـةٌ، والحجّـة قويّـةٌ دامغـةٌ، ولكنّـي لا أدري مـا هـي الصّعوبـة الي أشـارت إليهـا؟! هـذه الصّعوبـة التـي تزلـزل الكيـان! وهـل هنـاك زلازل أشـدّ مـن الـزّلازل التـي أصابتنـي حتّـى اليـوم؟! ليتنـي أعـرف هـذه الـزّلازل مـن أيّ نـوعٍ.

وانتصـف اللّيـل ولم تـأو الأمـيرة إلى الفـراش لتنـام، إنّهـا لا تـزال تفكّـر في النّبـوءة. وانبثـق الفجـر ولاحـت تباشـير الصّبـاح، فلقيـت الأمـيرة لم تغـادر مجلسـها مـن الأمـس، فجلسـت إليهـا تقـول:

- مـا الـذي يقلقـك إلى هـذه الدّرجـة أيّتهـا الأمـيرة؟ والمثـل يقـول: «كـذب المنجّمـون ولـو صدقـوا».

- لا يبدو على هذه العرّافة الكذب والاحتيال، لقد كانت تتكلّم الواقع، وكأنّما تستمدّ معلوماتها من السّماء!

- ولكنّها قالت إنّ شمس حياتك لا تلبث أن تسطع من جديدٍ.

- سأجتاز صعوبةً تزلزل كياني! هكذا قالت العرّافة، وهذا ما أريد أن أفهمه.

- قد تكون مبالغةً وتهويلًا.

- قد تكون، ولكنّي نادمةٌ أشدّ النّدم، فلماذا لم أجرّب أن أستزيدها الإيضاح؟

- ولكنّها أبت أن تزيد.

- لعلّها تريد أجرًا على ذلك؟ ليتني عرضت عليها ملء كيسها ذهبًا، على أن تخبرني بكلّ شيءٍ.

- لا تقتلي نفسك باللّوم والنّدم، تعالي نرجع لها، ونرضيها بالمال، إن كانت تقبل هذا الاقتراح.

وقامت العجوز تتبعها الأميرة، ووجهتهما خباء العرّافة مرّةً أخرى. وأشرفتا على الخباء، فرأتاه يعجّ بالرّجال الذين توافدوا من قبيلة المناذرة والقبائل الأخرى المجاورة، يستشيرون العرّافة بعدما طار صيتها في تلك الأنحاء في معرفة خفايا الأمور.

وكرهـت الأمـيرة أن تقصـد العرّافـة أمـام هـذه الجمـوع، فأخـذت العجـوز جانبًـا، وجلسـتا تنتظـران في ظـلّ شـجر النّخيـل.

ولاحظتـا حركـةً غـير عاديّـةٍ في الجمـوع المحتشـدة أمـام الخبـاء، فقـد أخـذوا يتجمّعـون ويتجمهـرون عـلى جانبـي الطّريـق، وكأنّمـا يقسـمونها لقـادمٍ عظيـمٍ يوشـك أن يمـرّ! وظهـر هـذا القـادم خارجًـا مـن خبـاء العرّافـة، كان شـابًّا طويـل القامـة، جهـم الجسـم، مرفـوع الـرّأس، يلبـس ملابـس الإمـارة، ويتقلّـد سـيفًا عظيـمًا! تـدلّ ملامحـه عـلى أنفـةٍ، وقـوّة شـكيمةٍ، ومـا أن ظهـر هـذا القـادم حتّـى اقتربـت منـه الجماهـير المحتشـدة تحيّيـه بتبجيـلٍ واحـترامٍ، بينـما تابـع السّـير يحـفّ بـه خـادمٌ.

والتفـت إلى الخادمـين وألقـى عليهـما كلمـةً قصـيرةً لم تصـل إلى أذن الأمـيرة، ولكنّهـا عرفـت، عندمـا أسرعـا إلى جـوادٍ مربـوطٍ إلى جـذع شـجرة نخيـلٍ، أنّـه طلـب إحضـار الجـواد.

والتفتت الأميرة تسـأل العجوز:

- مـن القادم يا خالتاه؟

- إنّه الأمير المهلهل ولد الأمير بشّـار.

وعـادت الأمـيرة تلتفـت إلى الأمـير المهلهـل الـذي أقبـل يتهـادى في مشـيته بخيـلاء وكبريـاء، ولمّـا رآهـما في مكانهـما تحـت شـجر النّخيـل عـرّج عليهـما وألقـى تحيّـة الصّبـاح، وقـال موجّهًـا الحديـث للعجـوز:

- وكيـف أنت يا خالة؟ وهل رفيقتك صاحبة السّـموّ علياء؟

- نعـم، هي أيّها الأمير.

- أنعـم وأكـرم بالأمـيرة! ولمـاذا تبتعـدان عـن الحـيّ إلى هـذا المـكان الموحـش؟

- جئنـا بالأمـيرة علياء علّها تتفسّـح قليلًا في هذا المكان الخلاء.

وكان الخادمـان قد وصـلا بالجواد، فالتفت الأمير إليهما وقال:

- أرجو للأميرة نزهةً جميلةً، أسـتودعكما الله

وهنـا لم يسـع الأمـيرة علياء التـي بقيـت مطرقـة الـرّأس كلّ الوقـت إلّا أن تـردّ مـع العجـوز عـلى وداع الأمـير:

- مع السّـلامة، وليحفظك الله.

وقفز الأمير إلى صهوة جواده بنشـاطٍ وقوّةٍ، وراح ينهب الأرض إلى الحيّ.

وخـفّ تجمهـر الرّجـال حـول خبـاء العرّافـة، ولم تمـض سـاعةٌ حتّـى أقفـرت الطّريـق مـن المـارّة، ولم يبـق أحـدٌ في الـوادي غـير ذلـك الكلـب الكبـير، وقـد رقـد بجانـب الخبـاء يلهـث، وكأنّمـا ظـنّ أنّ دوره في الحراسـة قـد انتهـى، فاستسـلم للسّـكينة ليسـتريح.

وقامت الأميرة والعجوز تواصلان السّير إلى الخباء، وما أن شعر الكلب بمقدمهما حتّى فتح عينيه وتململ في مرقده، وأخذ ينبح نباحًا متواصلًا، وكأنّما ينذر بقدوم زائرين.

وظهر العبد الأسود من باب الخباء وأطلّ بالزّائرتين، ولمّا عرف فيهما زائرتي الأمس، تركهما ودخل الخباء، ورجع بعد لحظةٍ يقول:

- هل من جديدٍ؟ تسألكما السّيّدة العرّافة.

- جئنا نسأل السيّدة العرّافة في أمرٍ مهمٍّ.

ورجع العبد إلى الخباء مرّةً ثانيةً، وعاد يأذن لهما بالدّخول، ولمّا دخلتا على العرّافة وجدتاها في مجلسها المعتاد، لكنّها في هذه المرّة تلبس الثّياب الخضراء، فعلى رأسها غطاءٌ أخضر، وثيابها خضراء واسعةٌ، حتّى المنديل الذي تحمله بيدها شديد الخضرة.

وقالت الأميرة بعد أن أخذت مجلسها قريبًا من العرّافة:

- أتيت إليك اليوم، يا خالتاه؛ لأقدّم لك هذه الهديّة الصّغيرة، على أن تذكري لي شيئًا عن تلك الصّعوبة التي أخبرتني عنها بالأمس.

ومدّت يدها ووضعت على البساط أمام العرّافة عشرة جنيهاتٍ ذهبًا. وأغمضت العرّافة عينيها واستسلمت في شبه غيبوبةٍ. وبعد فترةٍ قصيرةٍ، فتحت عينيها، وتلفّتت إلى الأميرة وقالت:

- هنالك أنّك ستصادفين صعوبةً، ولكنّك ستجتازينها بسلامٍ. هذا كلّ ما أعرفه.

وأمسكت العرّافة العشرة جنيهات الذّهبيّة، وأعادتها إلى الأميرة بإباءٍ شديدٍ.

ولمّا ألحّت عليها الأميرة أن تأخذها هديّةً منها، لم يسعها إلّا أن أخذت جنيهًا واحدًا، بينما ردّت الجنيهات الباقية إلى الأميرة.

حاولت الأميرة أن تستدرج العرّافة بالإفضاء بما تعرف عن تلك الصّعوبة، ولكنّها أبت أن تزيد على ما قالت كلمة واحدةً، ولمّا همّتا على القيام، تلفّتت العرّافة إلى العجوز وقالت:

- سوف تؤدّين لهذه الفتاة خدماتٍ جليلةً، وسوف تكافئك هذه الفتاة الطّيّبة بسخاءٍ.

ولمّا رجعتا إلى الحيّ، كان سلامة، خادم الأميرة ينتظر قدومهما ليقدّم لهما وجبة الطّعام، ولم تشعر الأميرة بشهيّةٍ للطّعام، فقد كانت منقبضة النّفس، مشغولة الفكر.

وجلست العجوز إليها، تخفّف عنها، وتحاول حملها على النّسيان، فقالت:

- إنّ هذه العرّافة تبدو على جانبٍ عظيمٍ من الدّهاء، فقد تكون على علمٍ ببعض أخبار قبيلتك، فحبكتها بمهارةٍ وحذقٍ، وأضافت إليها

هـذا التّهويـس والتّهويـل لتكسـب نبوءتهـا مظهـر الصّحّـة والصّـدق، ألا توافقـين عـلى هـذه الفكـرة؟!

- لتكـن هـذه النّبـوءة صادقـةً أو كاذبـةً؛ ولتنـزل بي المصائـب والـزّلازل مـن كلّ نـوعٍ! فقـد اعتـدت الكـوارث والفواجـع! ووطنـت النّفـس عـلى احتـمال المـكاره والآلام، وكأنّنـي المقصـودة بقـول الشّـاعر:

رمـانيالدّهـربـالأرزاءحتّـى فؤادي في غشـاءٍ من نبال

فصرت إذا أصابتني سـهامٌ تكـسّرت النّصال على النّصال

وجفّفـت دمعـةً انحـدرت مـن مآقيهـا، وقامـت إلى الطّعـام تتناولـه بحركـةٍ آليّـةٍ، وكأنّهـا لا تشـعر لـه بمـذاقٍ.

اسـتغرب الأمـير بشّـار مقـدم ولـده المهلهـل إلى الدّيـوان في هـذا الصّبـاح الباكـر، فلـم يكـن مـن عادتـه هـذا التّبكـير، حتّـى أنّـه كثـيرًا مـا اجتمـع وجـوه الحـيّ ورجالاتـه قبـل أن يصـل هـذا الأمـير إليـه.

وابتسـم الأمـير بشّـارٌ، ذلـك الأمـير العاقـل الرّزيـن، الـذي ينكـر عـلى ولـده غـروره وعـدم رويّتـه.

وتقـدّم الأمـير المهلهل من مجلس أبيـه، وألقى عليه تحيّة الصّباح:

- أسـعد الله صباح الأمير الوالد.

- وأسـعد اللـه صباحـك يـا بنـيّ. أراك مبكّـرًا في المجـيء إلى الدّيـوان عـلى غـير عادتك.

- أتيت لأستشيرك في أمرٍ، قبل أن يجتمع رجال القبيلة إليك.

- خيرٌ إن شاء الله.

- أتعدني بالمساعدة؟

- أعدك قبل أن أعرف غرضك؟! تكلّم لأدري ما تريد.

- أريد أن أتزوّج من الأميرة علياء. لقد رأيتها أمس يا أبتاه، فإذا هي عظيمةٌ رائعةٌ، جميلةٌ جليلةٌ! ولمّا سألت عنها فتيات الحيّ، أخذن يروين عن فصاحتها الأقاصيص والنّوادر، وعندما خلوت بنفسي وقارنتها بالأميرات اللواتي رأيتهنّ، وجدتها تبعد عنهنّ بعد السّماء عن الأرض. وليس لنا أن ننتظر أميرةً تحتلّ خيامنا، وتحيّي أضيافنا، وتربّي أولادنا خير من هذه الأميرة، فكيف قولك يا أبتاه؟

- تمنّيت على الله لو يحدث هذا الأمر يا ولداه، ولكن في المسألة صعوباتٌ وعقبات.

- وهل هناك صعوباتٌ يستعصي حلّها على الأمير بشّار؟!

- ها قد عاد المهلهل إلى نزقه وطيشه! قلت لك إنّني أتمنّى الله أن يجعل نصيبك أميرةً حسيبةً نسيبةً، بليغةً فصيحةً، كالأميرة علياء. ولكن لا تنس أنّ هذه الأميرة نزيلةٌ عندي، لاجئةٌ في إمارتي، فهي وديعة الله لديّ! وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أكرموا عزيز قومٍ ذلّ، وغنيّ قومٍ افتقر» فلن أقدم على أمرٍ يتعلّق بها، إلّا بعد موافقتها ورضاها؛ لئلا يقال فيما بعد «ظلمتها

المنـاذرة»!

- وهـل نظلمهـا عندما نعرض عليهـا إمارةً ثابتةً ونعيمًا مقيمًا؟

- ليـس هـذا الوضـع ظلـمًا، وإنّمـا لهـذه الأمـيرة قضيّـةٌ أودّ أن أطلعـك عليهـا؛ لتكـون عـلى هـدى مـن أمـرك. عندمـا تـوفّي الأمـير فـوّاز، والـد هـذه الأمـيرة، كانـت طفلـةً في العـاشرة، لا تـزال تلعـب جانـب الخيـام، ولمّـا لم يكـن لهـذا الأمـير ولـدٌ غـير هـذه الأمـيرة، فقـد أوصى بزواجهـا بابـن أخيـه جعفـر، وهـو عـلى فـراش المـوت، ولمّـا صـارت الأمـور إلى جعفـر بعـد مـوت أخيـه، أعلـن للقبيلـة موافقتـه ورضـاه عـلى وصيّـة أخيـه الرّاحـل، فيـما يتعلّـق بـزواج ابنتـه الأمـيرة علياء مـن ولـده الأمـير الضّرغـام. ومـن ذلـك الحـين أصبـح معروفًـا أنّ زواج الأميريـن سـيتمّ عندمـا يرجـع الأمـير ضرغـام مـن المدرسـة، وليـس في المسـألة تأويـلٌ أو شـكوكٌ. وأمّـا اليـوم، وبعـد أن انقرضـت تلـك الإمـارة، وذهـب ريحهـا، فقـد تكـون الأمـيرة راغبـةً عـن ذلـك الأمـير الضّعيـف، إلى أمـيرٍ قـويّ وإمـارةٍ عامـرةٍ، فعلينـا أن نخيّرهـا في الأمـر، فـإن أرادت أقررناهـا، وإن أبـت عذرناهـا.

- الرأي لك يا أبتاه، وها أنا أنتظر كلمتك في هذا الشّـأن.

وبـدأ وفـود الحـيّ يتسـاحبون إلى ديـوان الإمـارة، فختـم الأمـيران حديثهـما ذاك، واشـتركا مـع الوفـود في أحاديـث الحـيّ وشـؤون القبيلـة، وعندمـا

انفـضّ المجلـس، وخرجـت الوفـود التفـت الأمـير بشّـار إلى ولـده الأمـير المهلهـل وقـال لـه:

- أرسـل إلى الأميرة علياء من يخبرها بقدومي، فإنّني أريد أن أراها.

وهـبّ الأمير المهلهـل ينادي أحد الغلمان، ولمّا حضر، قال له:

- اذهـب إلى الأميرة عليـاء وأعلمها بمقدم خالها الأمير.

ورجـع الغلام بعد فترةٍ قصيرةٍ يقول:

- تقول الأميرة أهلًا وسـهلًا بالخال الأمير.

وقـام الأمـير بشّـار لزيـارة الأمـيرة عليـاء، وبقـي الأمـير المهلهـل في المجلـس ينتظـر عـودة أبيـه. ولمّـا دخـل الأمـير بشّـار لزيـارة الأمـيرة عليـاء، قامـت تسـلّم عليـه وترحّـب بمقدمـه. ولمّـا اسـتقرّ بهـما الجلـوس، قـال الأمـير:

- مـا قولك بالمناذرة يا علياء؟

- أنعـم بالمناذرة وأمـراء المناذرة! خيرة النّاس وصفوة القبائل.

- وما قولك إن كانت هذه القبيلة قد أحبّتك حبًّا شـديدًا؟

- إنّنـي أعجـز عـن تقديـم الشّـكر إلى هـؤلاء القـوم الأفاضـل، وأشـعر بحنانهـم وعطفهـم عـليّ.

- ليسـت مسـألة عطـفٍ وحنـانٍ، إنّهـم يقدّمـون لـك خدماتهـم وطاعتهـم، علّـك ترضـين أن تصبحـي أمـيرةً فيهـم.

- وهـل لفتـاةٍ محطّمةٍ مثـلي أن تصبح أميرةً في قبيلة المناذرة؟

-ومـا هـذه الأقـوال يـا أمـيرة عليـاء؟! وهـل نحكـم بخـراب الشّـجر إذا كـسرت غصونـه الرّيـاح؟!

- أشـكرك على هذه التّعزية الرّقيقة أيّها الخال الأمير.

- ولم الشّـكر يا ابنتاه؟ فلا شـكر على واجبٍ.

وأطرقـت الفتـاة وصمـت الأمـير، ومضـت فـترة صمـتٍ طويلـةٌ، عـاد بعدهـا الأمـير ليقـول:

- يـا أمـيرة عليـاء، أنـا أعـرف حـقّ المعرفـة أنّـك الأمـيرة العاقلـة الحكيمة، والبعيـدة النّظـر، السّـديدة الـرّأي، فجئـت أعـرض عليـك أمـرًا، أنـت فيـه مخـيّرةٌ لا مرغمـةٌ.

- ومـا هو هذا الأمر أيّها الأمير؟

- جئـت أطلـب يـدك إلى ولـدي الأمـير المهلهـل، واعلمـي أنّ لـك مطلـق الحريّـة في الرّفـض أو القبـول. فـإن وجدتـه أهـلًا فهذا مـا نطلبـه ونتمنّاه، وإن وجدتـه خـلاف ذلـك، فمـن سـوء طالـع هـذا الأمـير.

- ولكـنّ أبي، رحمـه اللـه، قـد أعطـاني إلى ابـن عمّـي الأمـير الضّرغـام، وحاشـاي أن أنقـض لأبي قـولًا بعـد مماتـه! فهـل تعـذرني أيّهـا الأمـير الكريـم؟

- نعـم، أعذرك، وأكبر فيك روح الوفاء والإخلاص.

وقـام الأمـير مـن زيارتـه، ورجـع إلى ديوانـه، وهـو مقتنـعٌ بعـذر الأمـيرة. ولمّـا لاقـاه ولـده الأمـير المهلهـل بـادره بالسّـؤال:

- خيرًا يا أبتاه.

- لقـد اعتـذرت الأمـيرة يـا بنـيّ، وعذرهـا وجيـهٌ مقبـولٌ. مـل كلّ مـا يتمنّـى المـرء يدركـه، تجـري الرّيـاح بمـا لا تشـتهي السّـفن.

- أين الأمير المهلهل؟

سـأل الشّـيخ قيـسٌ مـن مشـائخ العـرب الغـور الضّاربـين قريبًـا مـن قبيلـة المنـاذرة، وكان صديقًـا قديمًـا للأمـير المهلهـل.

فأجاب خادم الأمير:

- لقـد ذهـب إلى واحـة النّخيـل في طريـق الحـيّ، وطلـب لنـا أن نأخـذ لـه طعامًـا هنـاك؛ لأنّـه يريـد أن يخلـو بنفسـه هـذا النّهـار.

ولكـز الشّـيخ جـواده وأدار وجهتـه إلى واحـة النّخيـل، ولمّـا أشرف عليهـا، رأى الأمـير المهلهـل رابطًـا جـواده إلى جـذع نخلـة في طـرف الواحـة، وقـد خلـع سـيفه وعباءتـه، ورمـى بهـما جانبًـا منـه، بينـما اضطجـع عـلى الأرض موليًـا وجهـه صـوب الطّريـق.

وظنّـه الشّـيخ لأوّل وهلـة مسـتغرقًا في النّـوم، فقفـز عـن جـواده، وربطـه إلى جانـب جـواد الأمـير، وتقـدّم، ورفـع الأمـير رأسـه لـيرى القـادم، فصـاح بـه الشّـيخ:

- ظننتـك في غفـوةٍ! هل أنت هنا يا أمير؟

واسـتند الأمير جالسًا، وأجاب:

- بل مسـتيقظٌ، أهلًا وسهلًا بالشّيخ قيس.

- وبكم، السّـلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكـم السّـلام ورحمـة اللـه وبركاتـه، أيـن كنـت كلّ هـذه المـدّة يـا شـيخ؟ فقـد مـضى زمـنٌ طويـلٌ لم نـرك فيـه!

- لـو تدري أين كنت.

- قل بربّك.

- لقد كنت في شرقي الأردن لزيارة أخي شـامخ المقيم هناك.

- وهـل رأيت أحدًا من الأصحاب هناك؟

- لم أر أحـدًا غـير شـيخٍ مـن مشـائخ قبيلـة النّـسر، ولمّـا عـرف أنّنـي مـن عـرب فلسـطين المقيمـين قريبًـا مـن قبيلـة المنـاذرة، أبى إلّا أن أسـتصحبه إلى قبيلتهـم، وقـد سـلّموني هـذه الرّسـالة لأرسـلها لأميرتهـم عليـاء المقيمـة عندكـم، وهـا هـي الرّسـالة.

ومدّ الأمير يده ليتناول الرّسـالة، بينما حدّق بالشّـيخ وأله بعد لحظةٍ:

- وكيـف أحوال هذه القبيلة اليوم؟

- لقد رأيتهم يدبّرون أمورهم، ويديرون شؤونهم، وكأنّ فيهم أميرًا. والحقّ أنّ هؤلاء القوم كالبنيان الشّامخ، لا تزعزعهم الأهوال، ولا تأخذ منهم المصائب، حتّى أنّها وحقّك، تزيدهم قوّةً إلى قوّةٍ، وبأسًا إلى بأسٍ!

- وما أخبار أميرهم التّلميذ؟

- يقولون إنّه رجل الرّجال! ويتنبؤون له بمستقبل عظيمٍ! والقبيلة تتفانى في طاعة هذا الأمير ومحبّته، وينتظرون بفارغ صبرٍ ذلك اليوم الذي يرون فيه أميرهم المعبود عائدًا إلى إمارته.

- وما هي تصرّفات هذا الأمير تجاه قبيلته؟ حتّى نال ثقتهم وتفانيهم؟ أولم يضعف بعد موت أبيه؟

- لقد تصرّف تصرّفًا حكيمًا عاقلًا يدلّ على بعد نظره ونضوج عقله! عندما بلغه خبر موت أبيه، بكى كالطّفل إلى أن أغمي عليه، ولمّا هدأت ثائرته، أخذ من المدرسة إذنًا بالتّغيّب يومين، فسمحت له المدرسة، ثمّ ذهب إلى قبيلته، فلقيها في أسوأ الحالات، فالأميرات قد هجرنها بعد موت الأمير، فذهبت امرأة أبيه إلى أهلها في حوران، كما ذهبت الأميرة سعدى وابنتها الأميرة علياء إلى قبيلتكم في الأراضي الفلسطينيّة، وهلكت الأميرة سعدى قبل أن تبلغ هذه الدّيار! والقبيلة مختلفةٌ متنازعةٌ متمرّدةٌ! وقد انشقّوا على المشائخ الذين عملوا على المحافظة على كيان القبيلة من الانهيار! وكلّ ما في القبيلة يدعو للتّشاؤم والقنوط، فلم ييأس هذا الأمير أو يضعف!

بـل جمـع رجـال القبيلـة فـردًا فـردًا في صيـوان أبيـه، وشرح لهـم خطـورة حـال القبيلـة وتأرجحهـا بـين البقـاء والسّـقوط، واستشـارهم في الأمـر، فأشـاروا عليـه بتسـليم شـؤونهم إلى شـيخٍ عاقـلٍ خبـيرٍ يكـون مسـؤولًا عـن أحـوال القبيلـة إلى أن يعـود الأمـير، ووقـع اختيارهـم عـلى الشّـيخ «ريـان» الشّـهم المعـروف، وهكـذا، رضـخ لـه أفـراد القبيلـة، وأمسـك أعنّـة الأمـور بعـد أن أوشـكت عـلى الإفـلات! وهـو عـلى اتّصـالٍ دائـمٍ بالأمـير، يرجـع إليـه بمشـاكل القبيلـة وقضاياهـا، ويتلقّـى منـه التّعليـمات والأوامـر، وحسـبك أن تعـرف أنّـه لم ينـزح عـن هـذه القبيلـة فـردٌ واحـدٌ! كـما أنّـه لم يحـدث فيهـا حـادثٌ يضطـرّ حكومـة البـلاد إلى التّدخّـل في إعـادة النّظـام!

- ولمـاذا لا يرجـع هذا الأمير إلى قبيلتـه حيث ينتظرونه بفارغ الصّبر؟

- لم يبـق عـلى رجـوع الأمـير غـير سـنةٍ واحـدةٍ، والحقيقـة أنّنـا كنّـا قبـل اليـوم نجهـل فوائـد التّعليـم! فقـد أحيـا هـذا الأمـير بتعليمـه قبيلتـه مـن جديـدٍ! ليتـك تـرى الإصلاحـات الهائلـة التـي قـام بهـا هـذا الأمـير! لقـد اعتنـى بـأراضي الحـيّ وزراعتهـا، فحرثهـا عـلى الآلات الحديثـة، وزرعهـا حبوبًـا وخضـارًا، فأنتجـت إنتاجًـا عظيـمًا عـاد عـلى القبيلـة بالرّبـح الكثـير، ثـمّ ردم الـبرك والمسـتنقعات القريبـة، واعتنـى بالنّظافـة بدقّـةٍ، وعـزل الماشـية بطـرف الحـيّ البعيـد، فقلّـت عندهـم الأمـراض، وتحسّـنت صحّتهـم تحسّـنًا عظيـمًا، كـما توفّـروا عـلى اسـتغلال محصـولات الألبـان فأصبحـت إنتاجاتهـم مـن السّـمن والجـبن والزّبـدة تكتسـح أسـواق إربـد وعـمّان والسّـلط؛ بفضـل جودتهـا وتشـجيع هـذا

الأمـير. والقبيلـة اليـوم في رخـاءٍ وخـيرٍ، وزيـادة عـلى هـذا تجـد هـذا الأمـير راقيًـا مهذّبًـا عارفًـا بالقوانـين، فلـم يعـرض للحـيّ مشـكلٌ إلّا وجـد لـه حـلًّا لـدى السّـلطة، وقـد تحدّثـت الجرائـد عـن نبـوغ هـذا الأمـير وإصلاحاتـه الكثـيرة، حتّـى طـار صيتـه في الآفـاق.

- إذن فقد اسـتطاعت هذه القبيلة أن تتحاشى الانهيار.

- نعـم اسـتطاعت، وجميـع النّـاس يلهجـون بالثّنـاء عليهـا ويتمنّـون أن تسـتردّ مركزهـا بـين القبائـل في العاجـل القريـب.

وحـضر خـادم الأمـير المهلهـل وأحـضر الطّعـام للأمـير والضّيـف، فقامـا إليـه وهـما يتجاذبـان الحديـث، وقضيـا النّهـار في هـذه الواحـة المنفـردة إلى أن أشرفـت الشّـمس عـلى المغيـب.

وعندمـا قامـا إلى جواديهـما، وغـادرا الواحـة، كلّ إلى وجهتـه، فذهـب الشّـيخ إلى الجنـوب منهـا، حيـث تبـدأ طريقـه مـن هنـاك، ورجـع الأمـير إلى حيّـه بعـد وداع الضّيـف الشّـيخ.

وضاقـت نفـس الأمـير وانقبـض صـدره لمـا علـم بصـلاح قبيلـة النّـسر، فقـد كان يشـتهي ألّا تصـل أخبارهـم إلى الأمـيرة عليـاء، إلّا بعـد أن تكـون هـذه الأمـير قـد يئسـت ودبّ إلى نفسـها الوهـن، علّهـا تـرضى طلـب الأمـير والنّـزول عـلى إرادتـه! وبعدهـا، فلتحـي قبيلـة النّـسر مـن جديـدٍ، فـلا يهمّـه أمرهـا في شيءٍ.

تـرى كيـف يسـتطيع أن يغـيّر رأي هـذه الأمـيرة ويحملهـا عـلى الرّضـاء بطريقـةٍ شريفـةٍ معقولـةٍ يـرضى بهـا والـده الأمـير الـذي أخـذ عـلى عاتقـه حمايـة هـذه الأمـيرة والسّـهر عليهـا مـدّة بقائهـا في الحـيّ؟!

وعـاد إلى الرّسـالة التـي اسـتلمها مـن الشّـيخ قيـس، ونظـر إليهـا، ثـمّ هتـف في نفسـه يقـول:

- هـا هـي الرّسـالة تحمـل ختـم قبيلـة النّـسر، فلـماذا لا أجعـل منهـا أداةً في يـدي؟! فأوجّههـا للأمـيرة كيـف أشـاء؟!

وفضّهـا بيدٍ مرتجفةٍ، وقرأ:

«مـن الشّـيخ ريّـان، الـوصيّ عـلى إمـارة النّـسر، إلى ربّـة الصّـون والعفـاف، الأمـيرة المعظّمـة عليـاء. سـلامًا وولاءً وطاعـةً واحترامًـا مـن قبيلتـك الصّادقـة المخلصـة المقيمـة عـلى الـولاء والعهـود، كيـف أنـت أيّتهـا الأمـيرة العزيـزة، عسـاك بخـير وهنـاء؟ أمّـا نحـن فالحمـد للـه، بخـيرٍ وعـزٍّ، برعايـة أميرنـا الضّرغـام العظيـم، فقـد أمننـا بعـد خـوفٍ، وأعلانـا بعـد ذلٍّ، فقـرّي عينًـا، واطمئنّـي، فقبيلتـك في أحسـن حـالٍ، وأهـدأ بـالٍ، وإن كان لنـا أمنيـةٌ وأمـلٌ في هـذه الحيـاة، فليسـت هـذه الأمنيـة وهـذا الأمـل إلّا أن نـرى أميرينـا المعبوديـن علينـا والضّرغـام يعـودان إلى ديارهـما العامـرة، وحيّهـما المشـتاق المنتظـر، ونسـأل اللـه أن يمـنّ علينـا بذلـك اليـوم في القريـب.

كثـيرًا مـا سـألنا الأمـير ضرغـام رأينـا في مجيئـه إلى قبيلـة المنـاذرة؛ للاطمئنـان عليـك، ولكنّنـا نصحنـاه في عـدم المجـيء؛ ليتفـرّغ إلى مشـاكل قبيلتـه أوّلًا؛

ولاطمئناننا على راحتك في إمارة المناذرة برعاية خالك الأمير الهمام، الذي لن ننسى له جميله في إكرامك ورعايتك هذه المدّة الطّويلة، نسأل الله أن تبقى إمارته عامرةً شامخة الأركان.

وها قد آن أن نبشّرك يا أميرة بقرب العودة، فلم يبق على عودة الأمير إلّا سنة واحدة. هذا ونرجو أن تقبلي من أفراد قبيلتك أخلص التّحيّة وأجمل الثّناء عن أفراد القبيلة

«الشّيخ ريّان»

ولم يتمالك الأمير المهلهل أن مزّق الرّسالة بعصبيّةٍ، ورمى بها إلى الأرض، ثمّ تناول ورقةً وكتب:

«إلى الأميرة علياء من الشّقيّ التّعيس الشّيخ ريّان

أمّا بعد، فهلّا سألت أيّتها الأميرة عن الدّيار الخاربة، والأطلال الدّامرة؟! هلّا سألت عن فلول قبيلتك على بعد الدّيار؟ فنحن أتعس النّاس في هذه الحياة الدّنيا، فقد تفرّق شملنا، ونزح القسم الأعظم عن القبيلة بعد أن نهبوا الماشية والغلال والأموال! ولقد عاد الأمير الضّرغام إلى فلول قبيلته ولكنّه ضعيفٌ لا يقوى على بسط سلطته، ولا يجرؤ على إلقاء أوامره!

وقد حكم عليه خونة القبيلة بخلع السّيف وردّ الضّيف، فلم يستطع دفع الشّرّ والأذى عن نفسه، فصبر على البلاء، وقد تزوّج من إحدى فتيات الحيّ نزولًا على إرادة القبيلة.

لذلك بادرت بإرسال هذه الرّسالة لتطّلعي على الحقائق الواقعة في قبيلتنا، وتهتمّي بنفسك بقدر المستطاع، فليس من المستطاع أن نقدّم لسموّك أيّ مساعدةٍ تعود عليك بخيرٍ! هذا ونرجو أن تعذرينا على قصورنا نحوك، فليس لنا في الأمر حيلةٌ أو قوّةٌ.

«الشّيخ ريّان من مشائخ قبيلة النّسر المنهارة»

ثمّ طوى الرّسالة بعد أن أعاد قراءتها، ووضعها في ذلك المظروف الذي يحمل ختم إمارة القبيلة وسلّمها إلى خادمه قائلًا:

- أوصل هذه الرّسالة للأميرة علياء، ولا تسلّمها إلّا يدًا بيدٍ.

لم تستطع الأميرة التّخلّص من الهواجس منذ نزولها هذا الحيّ، فهي حزينةٌ باكيةٌ نادبةٌ على الدّوام، ولمّا أتت هذه العرّافة زادت هموم الأميرة الماضية همًّا جديدًا تتوقّع حدوثه بين لحظةٍ وأخرى، وها هي زيارة الأمير بشّار الأخيرة قد زادت الطّين بلّةً، والنّار اشتعالًا، والأدهى من هذا وذاك أنّها لا تعرف شيئًا عن أحوال قبيلتها، ولم تدر ما حدث لقومها بعد المصاب!

أتراهم قد هجروا الحيّ وتفرّقوا يطلبون الرّزق في الأرض، أم لمّوا شعثهم وأصلحوا أمورهم ومكثوا في ديارهم آمنين؟! من يستطيع أن يخبرها عن أمرهم شيئًا؟!

ولمّا عرفت العجوز تحسّبات الأميرة المريرة، أخذت تهوّن عليها، وتغالطها التّحسّب والاستنتاج، وقالت الأميرة:

- محـالٌ ألّا يكـون في هـذا الحـيّ خـبرٌ عنهـم! فلـماذا تكتمـون عـليّ؟! فـإن كان قـد ماتـوا جميعًـا، فليسـوا أعـزّ عـليّ مـن عمّـي وأبي! فدعـوني أبكيهـم وأندبهـم، ثـمّ أرضـخ لحكـم الواحـد القهّـار، وإن كانـوا بخـيرٍ وراحـة، فأريحـوني مـن هـذا العـذاب القاتـل، وزوّدوني في قطيعتـي ووحـدتي بأمـلٍ أعلّـل بـه نفـسي، علّنـي أحيـا مـن جديـد، ألا تسـمعون قـول الشّـاعر:

أعلّـل النّفـس بالآمـال أرقبهـا ما أضيق العيش لولا فسـحة الأمل

وقالت العجوز:

- هـوّني عليـك يـا أمـيرة علياء! أقسـم لـك أنّ نفـسي تحدّثنـي بقـرب الفـرج، فأتصـوّرك بعـين الخيـال تعوديـن إلى قبيلتـك التـي عـادت إلى مجدهـا القديـم!

- هيهـات! هيهـات أن أحلـم بالسّـعادة تعـود لقبيلتـي مـرّةً أخـرى! هيهـات ثـمّ هيهـات!

ووقـف على الباب خادم الأمير المهلهل، وقال:

- معي رسـالةٌ للأميرة علياء.

وهتفت الأميرة متفائلةً:

- وممّن الرّسـالة أيّها الغلام؟

- مـن قبيلتـك! وقـد وصلـت اليـوم إلى سـيّدي الأمـير المهلهـل الـذي بـادر بإرسـالها إليـك علّهـا تحمـل أخبـارًا سـارّةً إن شـاء اللـه.

وأمسـكت الأمـيرة الرّسـالة وهـي ترتعـش، ومـا إن وقـع نظرهـا عـلى ختـم الإمـارة الخـاصّ، حتّـى تسـاقطت الدّمـوع مـن عينيهـا مـن شـدّة الفـرح، وتهلّـل وجههـا، وارتجفـت أوصالهـا! ثـمّ فضتهـا بسرعـةٍ، ومـا أن ألقـت عليهـا نظـرةً قصـيرةً حتّـى فغـرت فاهـا ورفعـت رأسـها إلى السّـماء وهـي تقـول:

- رحـماك يـا ربّـاه، ألا تضـع حـدًّا لشـقائي وتعاسـتي، هـلّا رثيـت لضعفـي وآلامـي؟! أوّاه مـا أمـر عـذابي في هـذه الحيـاة! أواه! أواه يـا ربـاه!

وسـقطت إلى الأرض وكأنّهـا أصيبـت بسـهمٍ في الصّميـم! في الرّسـالة خـبرٌ مشـؤومٌ صعـق الأمـيرة، وقـضى عـلى البقيّـة الباقيـة مـن قـوّة صبرهـا واحتمالهـا، وهـل هـي مـن الصّخـر؟!

واسـتفاقت الأمـيرة بعـد الإسـعاف، فاجتمـع عندهـا نسـوة الحـيّ، يشـاركنها التّأثّـر والحـزن، ولمّـا أرخـى الظّـلام سـدوله عـلى الحـيّ، قامـت النّسـوة، ولم يبـق في الخيمـة إلّا الأمـيرة والعجـوز. فقالـت الأمـيرة:

- أعطوني الرّسـالة أعيدها مرّةً أخرى.

وأخـذت تعيد قراءتها على العجوز وهـما تبكيان، فقالت العجوز:

- شيءٌ منتظـرٌ بعد موت الأمير جعفر.

- تمنّيت لو حدثت معجزةٌ تحول بيننا وبين الخراب!

- وهل في هذا الزّمن معجزات؟!

وقالت الأميرة بعد صمتٍ طويلٍ:

- وما رأيك الآن يا خالتاه؟

- لو سألتني رأيي لأشرت عليك بالزّواج من الأمير المهلهل، فتبقين أميرةً محترمة الجانب، موفورة الكرامة.

- ماذا تقولين! أفضّل ألف مرّةٍ أن أموت على أن أقبل التّخلّي عن قبيلتي وهي في حال الشّدّة والمحن.

- وعلام عوّلت إذن.

- عوّلت العودة إلى القبيلة! فقد قتلني الانتظار!

- لك ما تشائين!

- وهل تذهبين يا خالتاه هناك؟

- تأكّدي يا أميرة أنّني لن أتخلّى عنك لحظة واحدةً، وها أنا على استعدادٍ لمرافقتك أين تذهبين.

- بارك الله فيك! بقي علينا أن نفكّر في طريقة الرّحيل.

- نعلم الأمير بشّارًا بأمر الرّسالة، ونستأذنه في الرّحيل، وسوف لا

يألـو جهـدًا في مسـاعدتنا، وإيصالنـا إلى بـلادك في الوقـت الـذي تريدينـه.

ونادت الأمـيرة على خادمها، وكان خارج الخيمة:

- سلامة.

- أمرك يا أميرة.

- خـذ هـذه الرّسـالة وسـلّمها للأمـير بشّـار، وقـل لـه إنّ عليـاء تسـتأذنك في الرّحيـل.

وخرج الخادم بالرّسـالة إلى ديوان الأمير.

بعـد أن سـلّم خـادم الأمـير المهلهـل الرّسـالة إلى الأمـيرة عليـاء، وقـف عـلى بـاب الخيمـة حسـب إشـارة سـيّده، ينتظـر وقعهـا عـلى الأمـيرة، ولمّـا رآهـا تصعـق وتجـنّ رجـع بالخـبر إلى سـيّده، وعندمـا سـأله الأمـير عمّـن كان بالخيمـة حينـذاك، قـصّ عليـك كيـف تجمّـع نسـوة الحـيّ عـلى صـوت النّحيـب والعويـل!

وعبـس الأمـير وافتكـر: «إذن لقـد تـسرّب الخـبر إلى الحـيّ، ولا يلبـث أن يصـل إلى أبي الأمـير!» وبقـي سـاعةً ذرع الطّريـق إلى خيمـة أبيـه ذهابًـا وإيابًـا، وقـد ذهبـت نفسـه نهبـةً للأفـكار والهواجـس.

ورفـع رأسـه فـرأى خـادم الأمـيرة عليـاء، مهـرولًا صـوب خيمـة والـده الأمـير! عندهـا انتبـه المهلهـل، وأسرع إلى خيمـة أبيـه، وكان في الخيمـة بعـض الرّجـال يشربـون القهـوة، ويصغـون للأمـير بشّـار الـذي انهمـك في

الحديث عن شدّة الحرّ هذه السّنة، وأضرارها البالغة على الزّرع!

وقال الأمير المهلهل وهو يدخل:

- السّلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، تفضّل يا أمير.

- أتيت أسألكم. هل معتم قبل ساعةٍ نواحًا وعويلًا في الحيّ؟!

ودهش الحاضرون، وأجابوا:

- كلّا! أتراه مات عندنا أحدٌ؟

- لالا، ليس في المسألة موتٌ! فقد أكون واهمًا فيما سمعت. سهي عن بالي أن أذكر لك يا سيّدي الوالد أنّنا استلمنا رسالةً من قبيلة النّسر للأميرة علياء.

- أحمد الله على وصول رسالةٍ منهم، عسى هذه الأميرة القلقة تطمئنّ، وهل أوصلت الرّسالة إلى صاحبتها؟

- طبعًا أوصلتها إليها يا سيّدي الأمير.

وظهر خادم الأميرة على باب الخيمة، وبيده الرّسالة، واقترب من الأمير بشّار، وقال:

- مولاي، هذه رسالةٌ وردت على الأميرة علياء، وهي ترجو منك أن تأذن لها بالرّحيل!

أجاب الأمير وهو يتناول الرّسالة:

- أتنوي الأميرة الرّحيل؟ وما السّبب يا ترى؟!

ولمّا قرأ الرّسالة، لم يلبث أن رمى بها الأرض! وصاح بصوتٍ جهوريٍّ: «ما قولكم في هذه الرّسالة يا قوم؟ مع أنّنا نعرف أنّ هذه القبيلة قد تفادت السّقوط، ونجت من التّهلكة، كما أنّ أحوال أميرها تبشّر بنجاحٍ عظيمٍ!

وأخذ الرّجال يقرؤون الرّسالة الواحد بعد الآخر، وقال أحدهم وهو يلوح بها:

- وحقّ الله أنّ هذه الرّسالة كاذبةٌ! فقد سمعت اليوم من صديقٍ كان في شرقي الأردن، أنّ أخبار هذه القبيلة قد طبقت الآفاق!

- إنّها دسيسةٌ دنيئةٌ، دسّها أحد أعداء القبيلتين!

وقال الأمير المهلهل:

- لقد استلمتها أمس من الشّيخ قيس، ولكنّي سأبحث عن صاحب هذه الخدعة لأريه جزاءه المرّ.

وعاد خادم الأميرة يقول للأمير بشّار:

- وهي تستأذنك يا مولاي في الرّحيل!

وقام الأمير واقفًا وقال:

- اذهب وأعلم الأميرة بقدمي، فإنّني أريد أن أتكلّم معها في هذا الأمر.

وعبثًا حاول إقناع الأميرة بزيف الرّسالة! فقد كانت متأكّدةً من ختم القبيلة وصحّته، ولمّا رأى الأمير إصرارها على الرّحيل، قال:

- لن أستطيع التّسليم برحيلك قبل أن نتأكّد من المسألة. تعال يا سلامة.

وحضر خادم الأميرة، فقال له الأمير:

- اذهب إلى غانم وادعه إليّ.

وحضر بعد لحظةٍ رجلٌ طويل القامة، ممتلئ الجثّة، تدلّ ملامحه على قوّة مراسٍ. وقال له الأمير:

- اسمع يا غانم.

- ليأمر مولانا الأمير.

- خذ معك رجلين واذهب إلى قبيلة النّسر، وألق عليها نظرة مدقّقٍ خبيرٍ! ثمّ جئني بالخبر اليقين بأسرع ما تستطيع.

وخرج الرجل مسرعًا لا يلوي على شيءٍ!

ورأتـه الأمـيرة صحبـة الرّجلـين، وقـد أرخـوا لخيولهـم الأعنّـة، فراحـت تنهـب الأرض نهبًـا.

ورأت الأمـيرة وهـي نائمـة، أمّهـا الأمـيرة عـدى، وقـد وقفـت إزاءهـا تبتسـم وتقـول:

- لـك البشـائر يـا عليـاء، قريبًـا تعوديـن إلى ديـارك، وتنسـين حيـاة الآلام والتّشرّد!

وفي اليـوم الثّـاني، بينـما كانـت الأمـيرة تقـف إزاء خيمتهـا تنتظـر وتطيـل النّظـر إلى الطّريـق، لمحـت عـن بعـدٍ، جيـادًا تطـير مسرعـةً تجـاه الحـيّ! ولم تلبـث أن تبيّنـت فيهـا جيـاد القبيلـة، يركبهـا غانـم والرّجـلان، أمّـا ذاك الرّجـل الرّابـع، فـلا شـكّ أنّـه غريـبٌ!

وأسرعـت دقّـات قلبهـا واهتـزّ كيانهـا قبـل أن تعـرف شـيئًا! أتراهـم يحملـون لهـا البشـائر السّـارة، أم ...؟ رحـماك يـا ربّـاه!

ولمّـا بلغـوا الـوادي القريـب مـن الحـيّ، اسـتطاعت الأمـيرة أن تتبـيّن ذلـك الغريـب، فلـم يكـن إلّا الشّـيخ ربـاح أحـد مشـائخ قبيلـة النّـسر!

يا الله، ولماذا حضر معهم هذا الشّـيخ؟ إنّها بشرى وحقّ الله.

ولم تسـتطع الأمـيرة أن تنتظـر أكـثر! فأخـذت تشـوح بيديهـا الاثنتـين! ولكـنّ المسـافة لا تـزال بعيـدةً، فـلا يسـتطيعون أن يروهـا، وهـي لا تسـتطيع أن تنتظـر!

ومـرّ أحـد فتيـة الحـيّ فـرأى الأمـيرة تـكاد أن تطـير! فـأسرع إلى بندقيّتـه يطلقهـا في الهـواء نـداء للقادمـين! وهنـاك انتبـه القادمـون إلى صـوت البـارود ورأوا مـن بعـدٍ تجمهـر النّـاس حـول خيمـة الأمـيرة، يحيّونهـم بتلويـح الأيـدي والمناديـل في الهـواء.

وعندهـا دوّى بـارود القادمـين في جنبـات الـوادي، يـردّون التّحيّـة بأحسـن منهـا، ثـمّ يسـتلّون سـيوفهم، يلوحـون بهـا، فتخطـف ببريقهـا القلـوب والأبصـار!

وهتـف النّـاس مـن حـول الأمـيرة، مـا لـوّح بالسّـيف إلّا منتـصرٌ، هـا هـم يرسـلون بشـائر الفـوز والانتصـار!

وتسـاقطت دمـوع الأمـيرة مـن شـدّة الفـرح والتّأثّـر! وضجّـت النّسـوة بالزّغـردة، في حـين هـرع فتيـة الحـيّ إلى جيادهـم، فامتطوهـا وأسرعـوا لملاقـاة الضّيـوف! وكان دخـان البـارود يمـلأ الجـوّ حولهـم، وقـد بلغـت أهازيجهـم وهتافاتهـم عنـان السّـماء، ومـا هـي إلّا دقائـق، حتّـى اجتـازوا الـوادي، وعـبروا الحـيّ ووجهتهـم ديـوان الأمـير بشّـار.

لاقاهـم الأمـير بحفـاوةٍ بالغـةٍ وسرورٍ عظيـمٍ، ثـمّ طلـب إلى الشّـيخ ربـاح أن يرافقـه إلى خيمـة الأمـيرة لتطمـئنّ قبـل كلّ شيءٍ. وعبثًـا حـاول الشّـيخ ربـاح أن يكبـت ثائرتـه حينـما رأى الأمـيرة التـي كانـت مجهشـةً في البـكاء، حتّـى أنّ الأمـير بشّـارًا قـد خانـه تجلّـده، ففاضـت عيناه بالدّمـوع.

ومضـت فـترة صمـتٍ رهيبـةٌ، فالألسـن صامتـةٌ، بينـما العيـون شـاكيةٌ بلغـة

الدّموع. وأخيرًا قال الأمير:

- نحمد الله الذي أمدّكم بقوّةٍ من عنده، ووقاكم من التّهلكة والشّتات، وأمّا الآن فليتفضّل الشّيخ بوصف حال القبيلة ليريحنا من الشّكّ والعذاب.

وأخذ الشّيخ يقصّ على الأميرين كلّ ما لاقته القبيلة من الصّعاب من يوم مصابها، إلى أن منّ الله عليها بالفرج بحكمة أميرهم العاقل الضّرغام، ثمّ أخذ يصوّر الإصلاحات العظيمة التي أدخلها الأمير إلى قبيلته، حتّى وصلت إلى حالة حسنةٍ جدًّا من اليسر والرّخاء.

وعادت الأميرة تسأل عن كلّ ما في القبيلة، ومن في القبيلة، والشّيخ يطمئنها، إلى أن عرفت كلّ ما يهمّها معرفته، وعندها تنفّست الصّعداء، وكأنّما انزاح عن كاهلها حملٌ ثقيلٌ.

ورجع الشّيخ يقول:

- هلّا عزمت على العودة أيّتها الأميرة؟ لئلّا يجعل منك ذوو الأغراض الدّنيئة فريسةً للأفكار والآلام؟!

وهنا تدخّل الأمير وهو يلوح بقبضة يده تهديدًا ووعيدًا:

- اتركاني أبحث عن صاحب هذه الدّسيسة الدّنيئة؛ لأراه من يكون.

وقالـت الأميرة تهدئ من ثائرته:

- ولمـاذا تزعـج نفسـك بذلـك السّـافل أيّهـا الخـال؟ لقـد أراد أن يكيـد لنـا فـردّ اللـه كيـده إلى نحـره، ولم ينـل مـن رسـالته الكاذبـة إلّا الخـزي والفشـل.

وقال الشّـيخ معجبًا بأقوال الأميرة:

- نعـم مـا قلـت أيّتهـا الأميرة عليـاء! لقـد انتقـم اللـه منـه وكفـى بذلـك جزاء.

وقال الأمير:

- إذن، فسـتبقى الأميرة ضيفـةً عنـدي، إلى أن يعـود الأمـير الضّرغـام إلى قبيلتـه، فنحملهـا إليـه معـزّزةً مكرّمـةً.

ودخـل خادم الأمير المهلهل يقول:

- مـولاي الأمـير، الطّعـام معـدٌّ، والـكلّ بانتظـار سـموّكم مـع الضّيـف الكريـم.

وعندهـا قـام الأمـير والضّيـف ليتنـاولا الطّعـام حيـث ينتظرهـما رجـالات الحـيّ.

وأقـام الضّيـف في ضيافـة المنـاذرة ثلاثـة أيّـامٍ، بـين حفـاوة القبيلـة، وفـرح الأمـيرة، وفي اليـوم الرّابـع ودّع الأميرة وداعًـا حـارًّا ومؤثّـرًا، ثـمّ ودّع الأميريـن

وأفـراد القبيلـة، وسـار إلى قومـه يحمـل لهـم سـلام الأمـيرة وأشـواقها وتمنّياتهـا.

ضاقـت الحيلـة بالأمـير المهلهـل، واشـتدّ سـخطه ونقمتـه حتّـى عـلى نفسـه، لمـاذا سـمح لغانـمٍ بالذّهـاب إلى القـوم حتّـى رجـع بأخبارهـم إلى الأمـيرة؟ ولمـاذا لم يصـوّب لذلـك الشّـيخ الـذي يحمـل البشـائر رصاصـةً ترديـه قتيـلًا؟ ومـاذا يسـتطيع أن يعمـل بعـد أن فشـلت جهـوده وأحبطـت تدابـيره؟

ولاحـظ أنّ الأمـيرة قـد تغـيّرت تغـيّرًا كبـيرًا! فقـد هجـرت عزلتهـا ووحشـتها، وأخـذت تكـثر مـن الاختـلاط بفتيـات الحـيّ ونسـوته، وقـد رآهـا البارحـة تذهـب لزيـارة شـقيقاته الأمـيرات لأوّل مـرّةٍ منـذ نزولهـا الحـيّ! أتراهـا قـد نسـيت أحزانهـا وآلامهـا؟!

وفعـلًا كانـت الأمـيرة قـد تخلّصـت مـن كابـوس الحـزن والقلـق، وأحسّـت بالحيـاة تتدفّـق في أوصالـه حـارّةً قويّـةً، فتبعـث فيهـا الأمـل والرّجـاء مـن جديـدٍ.

وهـا هـي تتعلّـق ببنـات خالهـا الأمـيرات الثّـلاث، فيجتمعـن كلّ يـومٍ، حيـث يقصـدن معًـا ذلـك التّـلّ القريـب، المـشرف عـلى قطعـان الماشـية وهـي ترعـى، وقـد تجمّـع الرّعيـان يسـتظلّون تحـت شـجرة التّـوت الكبـيرة، ويرسـلون عـلى النّـاي أغانيهـم البدويّـة الحنونـة.

ومـرّ عليهـنّ الأمـير بشّـارٌ يومًـا، وهـنّ في مجلسـهنّ يتحادثـن ويتضاحكـن، فوقـف مطرقًـا، وكأنّمـا مـرّت بـه ذكـرى، ثـمّ نـادى الرّعـاة قائـلًا:

- اصعـدوا إلى الأميرات وغنّوا لهنّ.

وتسـابق الرّعيان إلى مجلس الأميرات، وقال أحدهم:

- أنغنّـي للأميرات عتابا؟

- بل عالروزنا.

- بـل نغنّي لهنّ يا أمّ العبايا

وهتفت الأميرات باستحسـانٍ وفرحٍ:

- غنّوهـا أيّها الغلمان.

وعندهـا أخذ الرّعيان يغنّون، على النّاي، بصوتهم العذب السّـاحر:

يـاأم العبايـا حلوة عباتك

يا سـمرة ويا زينة صفاتك

زينة صفاتك

وكان الأمـير لا يـزال في موقفـه متلفتًـا إلى الأمـيرات الفرحـات، وأكثرهـنّ سرورًا الأمـيرة عليـاء، وعندمـا مـشى متثاقـلًا وهـو يقـول في نفسـه:

- مجلـس أمّهـا واللـه، حتّـى أغنيتهـا! لقـد أعـادت إلى نفـسي ذكـرى سـعدى الغاليـة.

مضت الأيّام تباعًا، ولم يبق على عودة الأميرة إلّا شهر، فوردت عليها البشائر والرّسائل من قبيلتها وأميرهم الضّرغام بقرب العودة إلى الدّيار، وبدأت الأميرة والعجوز تعدّان العدّة للرّحيل.

ولم يبق للأمير المهلهل قوّة على الصّبر والجلد، فليس من الهيّن أن ترحل هذه الأميرة وهو مكتوف اليدين، فقد أعجب بخصالها وسجاياها وافتتن بأخلاقها ومحاسنها، حتّى أباح لنفسه الغشّ والاحتيال في سبيلها ولكنّه فشل! ولم يبق في الوقت متّسعٌ للأمل والرّجاء، فكيف يستطيع أن يحبط مسعى الأميرة هذه المرّة بعد أن أصبحت حذرةً متيقّظةً؟!

وخطرت له فكرةٌ، فقام إلى خادمه عليٍّ، وقال له:

- تعال يا عليّ، هناك مهمّةٌ عليك أن تقوم بها على أكمل وجهٍ.

- ليأمر مولاي الأمير.

- اذهب إلى قبيلة النّسر، وانع لهم الأميرة علياء قبل أن يرجع أميرهم الضّرغام.

- ولكن!

- لا تلجأ للعناد وإلّا أطحت عنقك.

وقام عليٌّ فخلع ثيابه، ولبس ثيابًا حسنةً، وتقلّد سيفًا تحت عباءةٍ ثمينةٍ، وامتطى جوادًا، وغادر الحيّ في جنح الظّلام، ولمّا أوصل إلى قبيلة النّسر، لقيهم يستعدّون ليومهم العظيم! فلم يبق على عودة أميرهم

إلّا يـوم واحـد، وهـا قـد أقامـوا الأفـراح، وزيّنـوا الحـيّ، وفتحـوا صيـوان الإمـارة، فـأشرق الحـيّ وانقشـعت عنـه الغيـوم.

ودخـل الضّيـف مضافـة القبيلـة عابسًـا مهمومًـا، وجلـس مطرقًـا مـتردّدًا بـين الصّمـت والحديـث، والتفـت إليـه شـيخ القبيلـة وقـال:

- قل ما بنفسـك أيّها الأخ، فإنّني أراك قلقًا مهمومًا!

- ومـاذا أقـول؟ لقـد صـدق مـن قـال «وعنـد صفـو اللّيـالي يحـدث الكـدر»

- كفانـا الله شرّ الكـدر، تكلّم فقد روّعتنا بصمتك.

- لقـد مـررت عـلى قبيلـة المنـاذرة مـن يومـين، فوجدتهـا في أسـوأ حـالات الحـزن والأسى، فقـد ماتـت الأمـيرة عليـاء النّزيلـة عندهـم، وأصبحـوا حيـارى في أمرهـم، لا يهتـدون إلى سـبيلٍ. فـماذا يقولـون لقومهـا وابـن عمّهـا الأمـير؟ ولمّـا رأيـت حزنهـم وحيرتهـم، عرضـت عليهـم أن يعوّضوكـم أمـيرةً مـن شـقيقات الأمـير المهلهـل، فقبلـوا هـذا الـرّأي.

وهاج الرّجال وأخذوا يتسـاءلون:

- ماتـت أمـيرة عليـاء! كيـف ماتـت؟! مـا أفـدح خسـارتنا بهـذا المصـاب، ومـاذا نقـول للأمـير؟! اللـه! كأنّ النّـوازل تطاردنـا عـلى جـوادٍ سـبوقٍ، كلّ مصيبـةٍ تحـلّ بنـا أعظـم مـن الأخـرى!

وصاح شـيخ القبيلة بالثّائرين:

- أرجـو أيّهـا الإخـوان ألّا تقيمـوا مأتمًـا في وجـه الأمـير، وعلينـا أن نعـزّي أنفسـها لنهـون المصيبـة عليـه، ولا حـول ولا قـوّة إلّا باللـه العـليّ العظيـم!

وفي يـوم وصـول الأمـير إلى القبيلـة تكلّفـوا البشاشـة والهـدوء! ثـمّ أحاطـوا بـه يهنّئونـه بحـرارةٍ عظيمـةٍ، ويقدّمـون لـه تحيّاتهـم الحـارّة وولاءهـم وطاعتهـم.

وقـام الأمير في صباح اليـوم التّالي مبكّرًا، وقال لرجال الحيّ:

- اسـتعدّوا للسّفر أيّها الإخوان.

- إلى أيـن أيّها الأمير؟

- إلى قبيلـة المناذرة لنعيد الأميرة علياء.

وخـرج رجـال القبيلـة في هـمٍّ وكـربٍ، ثـمّ اجتمعـوا فيـما بينهـم للمشـورة، فقـرّ رأيهـم عـلى أن يذهبـوا مـع الأمـير إلى تلـك القبيلـة، ويحاولـوا أن يلقـوا عليـه الخـبر تدريجيًّـا، وهنـاك يعـودون بأمـيرةٍ مـن بنـات الأمـير بشّـار، بـدل أميرتهـم الرّاحلـة.

وأعـدّت الخيـول، وركـب الرّجـال يتقدّمهـم الأمـير الضّرغـام، ووجهتهـم قبيلـة المنـاذرة!

واستغرب الأمير بطء رجاله في السّير، وكأنّهم يخافون على الأرض من حوافر الخيول! وقال لهم:

- ما لي أراكم في غفوة أيّها الرّجال، فهل شاخت هممكم أم كلّت خيولكم؟!

وأسرع الرّجال قليلًا، ولكنّهم لم يلبثوا أن عادوا للتّباطؤ والفتور!

وعبثًا حاول الأمير أن يستحثّهم على السّرعة في المسير، فقد كانوا كمن يجرّ نفسه إلى ويل!

ولمّا توغّلوا في المسير، تلفّت الشيخ ريان إلى الأمير وقال:

- أسأل الله أن تكون أميرتنا الجديدة من أحسن الأميرات.

والتفت إليه الأمير يقول:

- ألا تعرف أنّها أحسن نساء الأرض؟!

وقال شيخٌ آخر للأمير:

- هكذا يقولون عنها، إنّها أحسن نساء الأرض.

واستغرب الأمير هذا الحديث، ونظر إليهم بدهشةٍ يقول:

- وعمّن تتحدّثون؟

- نتحدّث عن كريمة الأمير بشّار، التي ستصبح أميرةً علينا.

- وأيـن الأميرة علياء يا ترى؟!

وأطرق الرّجال، بينما أجاب الشّـيخ ريّان:

- البقيّـة في عمر مولانا الأمير.

وصـاح الأمير بصوتٍ قاصفٍ كالرّعد:

- ماذا تقولـون؟ ماتت الأميرة علياء؟! تكلّموا

وقال الشّـيخ وهو يحاول أن يخفي اضطرابه:

- كلّ نفـسٍ ذائقة الموت.

وأمسـك الأمـير بزمـام جـواده يسـتوقفه، ثـمّ رفـع عينيـه إلى السّـماء وهـو يقـول:

- ماتــت علیــاء! ماتــت علیــاء! غريبــة عــن الــدّار والوطــن والأهــل والأقــارب، ماتــت نزيلــةً، لاجئــةً، نعــم ماتــت.

ثـمّ لكـز جـواده بشـدّةٍ فطـار بـه يسـابق الرّيـح، ولحـق بـه رجـال القبيلـة، يحاولـون حملـه عـلى التّخفيـف مـن سرعتـه، ولكنّـه ظـلّ مارقًـا منهـم كالسّـهم، ورأتـه فتيـات المنـاذرة وهـو يقـترب مـن الحـيّ، فأخـذن يترفّعـن عـن الطّريـق ويقلـن:

- فارسٌ جمح به جواده، فلا يسـتطيع أن يكبحه!

ولكنّه شدّ زمام جواده، عندما اقترب من فتيات المناذرة، ووقف بينهنّ يقول:

- هلّا ذكرتنّ يا فتيات العرب، كيف قضت علياء في ضيافتكنّ؟ وهل ماتت وحيدةً منعزلةً؟ أم جلستنّ إليها تؤنسنها عند الموت؟ وهلّا أخذتني بالله إلى ضريح علياء لأراه! أين هو؟ أين هو ضريحها؟

دهشت الفتيات من لهجة هذا الغريب الذي يندب من تسمّى علياء، وقالت له إحداهنّ:

- من أنت أيّها الفارس، ومن علياؤك؟

- أنا الضّرغام الجعفريّ أمير قبيلة النّسر، وعلياء النّزيلة عندكم.

وهتفن بصوتٍ واحدٍ:

- الأميرة علياء لم تمت! هي هناك في خيمتها تستعدّ للعودة إلى الدّيار، من قال إنّها ماتت؟!

وذهل الأمير! فالأميرة علياء ميتةٌ، والأميرة علياء حيّةٌ! هكذا يقولون ...

ولمّا رأت الفتيات ذهول الأمير، ركضت إحداهنّ إلى ناحيةٍ قريبة من الخيام ونادت بأعلى صوتها:

- سلامة، سلامة.

وظهـر إزاء خيمـةٍ بعيـدةٍ سـلامة خـادم الأمـيرة عليـاء، وأعـادت الفتـاة النّـداء تقـول لـه: «قـل للأمـيرة عليـاء أنّ الأمـير الضّرغـام قـد حـضر».

رأى رجـال المنـاذرة فارسًـا يقـترب مـن الحـيّ، فتألّبـوا حولـه يتعرّفونـه، ولحـق رجـال قبيلـة النّـسر بأميرهـم، فألفـوه يتوسّـط جمعًـا غفـيرًا مـن رجـال المنـاذرة، وهـو يطـلّ ببـصره إلى الخيـام كالمذهـول!

وظهـرت مـن خيمـةٍ بعيـدةٍ في صـدر الحـيّ فتـاةٌ عظيمـةٌ رائعـةٌ، تمـشي وتتعـثّر مـن الاضطـراب، ولم تكـن إلّا الأمـيرة عليـاء. عندهـا هتـف رجـال قبيلـة النّـسر بثـورةٍ وجنـونٍ: «إنّهـا الأمـيرة عليـاء واللـه» وقـال رجـال المنـاذرة بغـير اكـتراثٍ: «نعـم هـي» والتفـت الأمـير ضرغـام إلى رجـال قبيلتـه يقـول:

- كيـف قلتـم عـن الأمـيرة عليـاء مـا قلتـم؟! كيـف نسـبتم إليهـا المـوت بحـقّ السّـماء؟!

وكان صـوت الأمـيرة يصل إلى آذان الرّجال وهي تقول:

- قبيلـة النّـسر وأميرهـم، أهـلي وعشـيرتي، هـا هـم وحـقّ اللـه، أتـراني في حلـم؟!

وتدفّقـت الدّمـوع مـن عينـي الأمـير ورجالـه، وكان الخـبر قـد وصـل إلى الأمـير بشّـار، فـأسرع حيـث تجمهـر النّـاس حـول الأمـير، ولاقاهـم بالتّرحيـب والتّهنئـة، ولكنّـه لحـظ هيـاج الأمـير ورجالـه، فقـال:

- مـا لي أراكـم أيّها القوم مضطربين هائجين؟

وأجاب الشّـيخ ريّان عندما رأى وجوم الأمير الضّرغام:

- لقـد نـزل بنـا لئيـمٌ غـادرٌ، فأشـاع نبـأ مـوت الأمـيرة عليـاء، وهـذا سـبب هياجنـا أيّهـا الأمـير.

وصاح الأمير بشّـار وقد تطاير الشّرر من عينيه:

- اللـه أكـبر! يحاولون للكيد للأمـيرة ثانيةً؟ الويل لمن هي فعلته

ثمّ التفت إلى الشّـيخ يقول:

- هـل تعرف ذلك اللّئيم؟

- أسـتطيع أن أتبيّنه إن رأيته.

وصاح الأمير بشّـار بأحد رجاله:

- اجمع لي رجال الحيّ فردًا فردًا، لنعرضهم على الشّـيخ.

وبـدأ رجـال القبيلـة يتسـاحبون حسـب طلـب الأمـير، ولمّـا رأت الأمـيرة عليـاء مـا جـرى، أحسّـت أنّ في الأمـر سرًّا، وأسرعـت الخطـى وهـي تقـول باضطـرابٍ شـديدٍ:

- مـا الخبر يا قوم؟

وقـال لها أحد رجال المناذرة:

- دسيسـةٌ ثانيـةٌ تصـل إلى قومـك، ولسـنا نـدري مـن الـذي يضمـر لـك هـذا العـداء.

- وما هي الدّسيسـة يا ترى؟

- لقـد أشـاعوا نبـأ موتـك، حتّـى بلـغ اليـأس بقومـك والأمـير مـا تريـن! الويـل لصاحـب هـذه الدّسيسـة.

والتفتـت الأمـيرة إلى الأميريـن، فعرفـت مبلـغ هياجهـما وعصبيّتهـما، ثـمّ نظـرت إلى رجـال القبيلتـين فرأتهـم ينظـرون إلى الشّـيخ ريّـان، وهـو يسـتعرض رجـال المنـاذرة، وكأنّهـم يسـتعدّون للانتقـام!

وعندها قالـت للأمير الضّرغام ورجاله بصوتٍ جهوريٍّ:

- رويـدًا أيّهـا القـوم! أنعكّـر صفاءنـا للانتقـام مـن حسـودٍ لئيـم؟! حاشـا وكلّا

وكأنّمـا أيقظـت كلمـة الأمـيرة روح التّسـامح في الأمـير الضّرغـام، فهتـف يقـول:

- لقـد عفـوت عنـه إكرامًـا للأمـيرة عليـاء، ويكفيـه انتقامًـا حـزازات صـدره ونـيران جوانحـه، وأمّـا أنـا فقـد عفـوت عنـه.

وردّد رجـال القبيلتـين الهتافـات الحـارّة بحيـاة الأمـير الكريـم، والأمـيرة السّـمحاء.

وذهب القوم إلى ديوان الأمير بشّارٍ لتناول الطّعام والاستراحة، وقد انقلب الحزن فرحًا، والسّخط رضا وسماحًا.

ولمّا قام الأمير الضّرغام ورجاله إلى جيادهم للرّحيل، قدّم الأمير بشّارٌ إلى الأميرة علياء وجليستها العجوز جوادين من خيرة جياده، ورافقهم مع رجال قبيلته إلى آخر الحيّ يودّعونهم وداعًا حارًّا بينما كانوا يلهجون بشكرهم والثّناء عليهم، وتطلّع الأمير بشّارٌ إلى القوم ليأمرهم بالرّجوع، فرأى سلامة خادم الأميرة يمسح دموعه الغزيرة ويقول:

- يعزّ عليّ أن أفارق سيدتي الأميرة والله!

فنادى الأمير القوم بصوتٍ جهوريٍّ، وهو يدفع نحوهم خادم الأميرة:

- أيّها القوم، اقبلوا من المناذرة هديّتهم الأخيرة «السّلامة».

إلى هنا تنتهي القصّة

«بيننا» معشر المرأة

كلمة الأخت للأخت، بل حديث النّفس للنّفس، فلتكن كلمةً صريحةً شاملةً، ولكن حديثًا معنويًّا عميقًا، بوحيٍ من صميم الواقع والحياة.

نعم إنّ المرأة اليوم غيرها بالأمس، من حيث المدنيّة والرّقيّ، ولكنّها لم تخلص نهائيًّا، من بعض الأخطاء والعيوب التي يجب أن تعرفها لتحاربها؛ لتكون على استعدادٍ للغد.

مثل من يحمّل الرجل مسؤوليّة تحكّمه بالمرأة، مثل من يلوم الحكومات القويّة التي بسطت نفوذها على الدّول الصّغيرة، وكما تبرّر هذه الحكومات عملها بحجّة حماية الضّعيف، كذلك الرّجل يبرّر عمله بالحجّة نفسها. فلو كانت المرأة قوّةً كاملةً مستقلّةً، تستطيع حماية نفسها بنفسها، لما وجد الرّجل سبيلًا إلى التّدخّل بها.

صحيح أنّ الرّجل ظلمنا، ولكنّنا نتحامل عليه إذا نسبنا له كلّ انحطاطنا، وأقسم أنّ المرأة تسيء إلى المرأة من حيث لا تدري أكثر ممّا أساء لها الرّجل!

ينسبون إلى المرأة عدم الاعتراف بالخطأ، والحماية بالإنكار والجدال، ألا ترين قبح هذه المزية يا أختاه؟ إنّه لأفضل ألف مرّةٍ أن تعترفي بخطئك على ألّا تعودي إليه، من أن تكوني لحوحةً مراوغةً، لا تخضع للحقّ ولا ترضخ له، ولماذا تتنصّلين من الخطأ وكلّ إنسانٍ عرضةٌ له؟!

إيّاك أن تندفعي إلى هدفك دفعةً واحدةً، فيكون نصيبك السّقوط. بل عليك أن تمشي إليه خطوةً خطوةً، فتصلي سالمةً مستريحةً، فقد قيل: الرّجل نجح نجاحًا باهرًا، كيف الطّريق إلى النّجاح؟ فقال: طريق النّجاح كالسّلم، فلا ترتقه دفعةً واحدةً فتسقط محطّمًا إلى الأرض، ولا ترتق درجتين معًا فتزلّ قدمك وتجرع حيث بدأت، بل عليك أن ترتقيه درجةً درجةً فتصل سالمًا موفور القوّة والنّشاط.

مع أنّ حال الأسرة قد تحسّنت كثيرًا، ولكنّنا نسمع بين الفينة والفينة، عن انهيار بعض الأسر بسبب تهوّر المرأة وإهمالها، ولا تسلم المرأة في معظم هذه الحوادث أن تكون الضحيّة كما كانت الجانية.

إيّاك أن تهدمي سعادتك لمجرّد شكوكٍ قد تكون باطلةً، بل عليك أن تكوني حذرةً متيقّظةً عاقلةً، فكم ثورةً قصيرةً أثارتها المرأة في وجه زوجها، خلّفت شقاء العمر ومرارة النّدم.

إنّ خلاف الزّوجة مع أهل الزّوج سببٌ تافهٌ لا يبرّر لها أن تجعل من بيتها جحيمًا مستعرًا، لا تبرد ناره ولا ينطفئ أواره، ويكفي قليلًا من الحكمة والتّدبّر لفضّ ذلك الخلاف.

ليست الرّاحة أن تأخذي زوجك بعيدًا عن أهله، فسيبقى بين جنبيه حنينٌ يعاوده بين الحين والحين فينغّص عليكما الصّفو والهناء.

يقولون إنّ الثّرثرة والمناقشة للاشيء أبرز ظاهرةٍ في المجتمع النّسويّ عندنا، ولا يسعنا إلّا الاعتراف. ولكنّ المدقّق المتفحّص يرى أنّ الأسباب ترجع إلى تفاوت عقليّات المرأة في المجتمع؛ لاختلاف ثقافتهنّ، فالمرأة المتقدّمة في السّنّ على الغالب جاهلةٌ متعصّبةٌ لعدم رواج العلم بزمنها، والمرأة المتوسّطة خليطٌ من الجاهلة والمتعلّمة، والمرأة الجديدة على العموم متعلّمةٌ، فمن هنا نرى أنّ أيّ مسألةٍ أو حديثٍ يعرض على هذه العقليّات المتفاوتة لا بدّ أن يكون موضع جدلٍ ومناقشةٍ وثرثرةٍ؛ لكي يؤيّد كلّ فريقٍ رأيه حسب عقليّته واستنتاجه.

يعيب الرّجل على المرأة تصغير عمرها وعدم إقرارها بحقيقته، وأمّا الأسباب التي تدفع المرأة دائمًا إلى هذا التّصغير؛ فلأنّها ترى في الصّغر عذرًا عن جهالةٍ أو هفوةٍ تصدر منها، ولا يغفر لها الكبر ووقاره

وهيبتـه، أمّـا الرّجـل فـلا دافـع لـه عـلى تصغـير عمـره؛ لأنّـه قـلّ أن يعتـذر أو يتحـاشى الجهالـة والهفـوات في الصّغـر والكـبر عـلى السّـواء، ألا تـرون في تصغـير عمـر المـرأة معنـى احـترام الكـبر وإجلالـه!

يكفـي للدّلالـة عـلى خدمـات المـرأة للإنسـانيّة، إسـعاد النـشء وتكفلـه، ولعمـري إنّ أطفـالًا تـوفّي والدهـم لأحسـن حـالًا مـن أطفـالٍ توفّيـت أمّهـم، فـلا تقتـصر الأمّ في الحالـة الأولى أن تقـف حياتهـا عـلى رعايـة أولادهـا وتكفلهـم، بينـما لا يلبـث الأب في الحالـة الثّانيـة أن يتنـاسى أولاده، يفتـك بهـم الألم، ويقتـل نفوسـهم الهـوان.

المـرأة شـديدة الحـذر بطبيعتهـا، والرّجـل شـديد الجـرأة بطبيعتـه؛ لذلـك نـرى المـرأة هيّابـةً سريعـة التّراجـع لحذرهـا، الرّجـل أكـثر إقدامًـا لكنّـه أقـلّ حيطـةً للعواقـب، فلـو تعـاون الرّجـل والمـرأة في توجيـه الـرّأي وتسـيير الأمـور؛ لضمنـا يقظـة الحـذر، وفـوز الجـريء

الرّجـل قـوّةٌ ملموسـةٌ تراهـا العـين بالنّظـرة الأولى، ولكـنّ المـرأة قـوّةٌ محسوسـةٌ، تشـعر بهـا النّفـس قبـل العـين.

يزخـر صـدر المـرأة بكنـوزٍ عظيمـة مـن النّبـوغ والعبقريّـة تكفـي لإسـعاد البشريّـة، لـو وجـدت مـن يسـاعد عـلى إخـراج هـذه الكنـوز إلى عـالم الوجـود.

أعـود فأوصيـك أيّتهـا الأخـت العزيـزة الغاليـة ألّا تنـسي واجباتـك نحـو بيتـك وأسرتـك، مهـما بلغـت أشـغالك مـن الكـثرة والصّعوبـة، فبيتـك هـو المملكـة الدّائمـة التـي وكل اللـه حراسـتها لـك، فإيّـاك والتّهـاون بمـا وهبـك اللـه.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان